التَّامُور

حَنِينُ القَلبِ إلى السَّمَاء



حَنِينُ القَلْبِ إِلى السَّمَاء

د. سُلَيْمَان بن نَاصِر العبُودِي

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبُودي، سليمان بن ناصر

التَّامور – حنين القلب إلىٰ السماء. / سليمان بن ناصر العبُودي – الرياض، ١٤٤٤هـ

ص ١٥٣؛ ١٤×٢١ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٩٧٢-٢-٥

١- الوعظ والإرشاد

أ. العنوان

ديوي ٢١٣   ١٤٤٤/٧٥١٠

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٢٠١٣

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٩٧٢-٢-٥

الطبعة الثالثة

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م


بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الوالدة الغالية

منى بنت إبراهيم السنيد

أدام الله عليها البهجة والعافية

أهدي هذا الكتاب

فهرس المحتويات

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .. أما بعد:

فإن الإنسان إذا أراد أن يجد مطلوبًا بشريًّا واحدًا لسائر الخلائق؛ منهم من يطلبه بإيمانه، ومنهم من يطلبه بإلحاده، ومنهم من يطلبه بالزهادة والتقلُّل، ومنهم من يطلبه بامتطاء صهوة الملذَّات، ومنهم من يطلبه بلزوم المحاريب وصيامِ الهواجِر؛ فلن يجد مطلوبًا بشريًّا اتَّحد الناس كلهم في السعي وراءه منذ خُلِقَ آدم عليه السلام إلىٰ قيام الساعة غيرَ تحصيلِ السعادة، قد استوىٰ هذا المطلوب لدىٰ كافَّة البشر، ثم تباينت وسائِلهم تباينًا عظيمًا في محاولة الوصول إليه، بل إن الإنسان منذ فجر الخليقة لا يكاد يتحرَّك أساسًا في غدوِّه ورواحِه إلا في تحصيل هذا المطلوب، ولذلك نستطيع أن نقول بارتياحٍ تامٍّ: إن عامَّة السلوكيات البشرية من بداية الخلق إلىٰ أن يرث الله الأرض ومَن عليها ما هي إلا **إجابةٌ خاطئةٌ عن سؤالِ السعادة**.

ولذلك كلِّه أنعمت النظر في أمثال هذه السؤالات الكبيرة: ما إكسير سعادة الإنسان في هذه الحياة؟ وما مكدرات هذه السعادة؟ وأين أخفق الإنسان قديمًا وحديثًا في طلب سعادته؟ وما منابع السعادة المأمونة العواقب؟

فجاءت هذه الفصول التأمُّلِيَّة والتي أسميتها «**التامور .. حنين القلب إلىٰ السماء**»، والتَّامور هو غشاء رقيقٌ يحيط بقلب الإنسان من كلِّ نواحيه، ليعطيه مجالًا رحبًا للتحرك دون أن يتعرض لأذىٰ الاحتكاك، فهو كالجدار الواقِي للقلب الإنساني، وأرجو أن تكون هذه الرسالة اليسيرة وقايةً معنوية لمن قرأها بعين التأمُّل والتدبّر.

والرسالة جوابٌ تفصيليٌّ بعد نظرٍ في المقدمات والتجارب والمآلات، تخلَّلَها عَرْضٌ صادقٌ لشهاداتٍ عديدة من اتجاهات مختلفة، وكلُّ أنهار التجارب التي وقفتُ عليها تَصُبُّ في مجرىٰ جوابٍ واحد.

والرسالة تنقسم إلىٰ ثلاثة محاور:

الأول: السعادة ومنغصاتها: وتضمَّن الكلام عن إكسير سعادة الإنسان، وأين تكمن السعادة المأمونة، مع شرحٍ تفصيليٍّ لبعض المنغِّصات.

الثاني: أثر المشاعر القلبية: وتضمن الكلام عن أثر الشعور علىٰ المسير، وما مقوِّمات حلاوة الإيمان، ثم كيف يستوطن العشق شغافَ القلب، وما أسباب الخلاص منه.

الثالث: معراج الأوراد الإيمانية: وتضمن الكلام عن حجاب الإلف، والدهشة الخالدة بالقرآن، ومنشور الولاية، وعلاقة الذكر بالإنجاز.

وآثرت تقديم **محور السعادة ومنغصاتها** في صدر الرسالة؛ لاشتماله علىٰ جوهر الإجابة وذيولِها، فإذا استقرَّت حقيقة الجواب في نفس القارئ؛ تاقت نفسه لمعرفة أيسر السبل إلىٰ السعادة الأبدية، فناسب أن يطالع بعدها **أثر المشاعر القلبية** في رحلته إلىٰ تحقيق السعادة، ثم يختم مسيرته مع الرسالة بمطالعة **معراج الأوراد الإيمانية**.

وأسال الله تعالىٰ أن يجعل هذه الرسالة إجابة صحيحةً علىٰ سؤال السعادة الأبديّ، وأن تكون هذه الفصول اليسيرة باعثةً للبهجة في نفس كاتبِها وقارئها في الدَّارين.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

د. سُليَمَان بن نَاصِر العبُودِي

s.n.alobodi@gmail.com

إكسير السعادة ومنغصاتها

التواصل إكسير السعادة

لِلَّهْوِ آونـةٌ تمـرُّ كأنهـا
قُبَـلٌ يُزَوِّدُهـا حبيـبٌ راحـلُ
جَمَحَ الزَّمـانُ فمـا لذيـذٌ خالـصٌ
ممـا يَشُـوْبُ ولا سـرورٌ كامِـلُ!

المتنبي

إذا فتشتَ في طبيعة هذا الإنسان، وتفكرتَ في أكثر ما يجري في قلبه طوفان السعادة، فستجد أن سعادته تكمن في الوِصال مع الآخرين، فالإنسان كائن تواصلي بطبعه، وجوهر سعادته، وإكسير نشوته، وانشراح نوافذ فؤاده، وانثيال براعم الفرح في قلبه هو فيما يتجاوز به محيط ذاته، ويحقق صلته بالعالم المحيط به من حوله، وذلك في سائر أحواله المختلفة:

إذا أخذته الفرحة الجامحة، وشعر من فرط حلاوتها أن قلبه يكاد يقفز من مكانه ويطلُّ من أحداق عينيه، بحث فورًا عمَّن يقتسم معه هذه الفرحة من أحبابه، ويخفف عنه حملها، وبهذا التشارك والتقاسم، وفي لمح بريق الرضا والغبطة باديًا في عيون الأهل والأحباب تتم له اللذة بالمباهج والأفراح، ولو زارته قافلة الأفراح وهو غائب عن أصحابه وخُلانه لكانت فرحته تلك ناقصة منغَّصة تشبه الأحزان، فالفرحة البشرية كما قيل: لا تولد إلا توأَمًا، لذلك كان الشاعر الإيرلندي برنارد شو عميقًا شيئًا ما حين قال في تعريف الغربة الروحية: (هي أن يكون لديك خبرٌ مبهج، ولا تجد من تنقله إليه).

وإذا غَيَّب غُراب الفَقْدِ حبيبًا كان وثيقَ الصلة به، وأخذ طائر الحزن ينقر بين ضلوعه نقرًا، كان في تعزية الآخرين له، واجتماعهم حوله، وتوثيق صلاتهم به؛ بلسمًا -ولو مؤقتًا- لجراحه الراعفة،

لا سيما في أوان الصدمة الأولىٰ، فيجد في لحظات الوصال المكثف في العزاء ما يخفف فَقْدَ وِصال حبيبٍ راحلٍ، كأنما هو تعويض وصالٍ بوصالٍ!

وإذا ركب الطائرة في سفرٍ طويل، وجفاه النوم ولم تلامس جفنيه أنامل الوسن، تراه يلتفت يمينًا وشمالًا، ويفتعل أسئلةً يعرف جوابها، ويصطنع استفسارات لا تهمه كثيرًا، لعله يلمح من طيات الجواب الذي يأتيه وجهًا يلائمه فيبادله الحديث، ويغتال بمسامرته رتابة عجلة الزمن، وكم من علائقَ وثيقة توطدت من المواقف العابرة، إما علىٰ سرير مستشفىٰ مجاور، أو عنبر إيقاف، أو صالة انتظار مطار.

وإذا كان صاحبَ اطلاع معرفيّ واستغرق وهو يقرأ كتابًا، ثم مرَّت به معلومة جديدة عليه، فربما انبعثت أسارير البهجة علىٰ ملامحه، فرفع رأسه عن دِفَّتي الكتاب كأنما ناءَ بحملِ ما عَلِمَ، وتلفَّت قلبُه قبل رَقَبَتِه، علَّه يجد من يروي له تلك المعلومة الجديدة، فإن لم يجد أحدا بعثها بالجوال إلىٰ صديق أو أكثر -حتىٰ ولو كانت تلك المعلومة لا تعني غيره كثيرا- لكن ليحقِّقَ سعادته البشرية الغامِرَة التي تكمُن في تدفق أنهار الوصال مع العالمِ من حولِه، ومن الطريفِ في هذا الباب ما جاء في ترجمة الفيلسوف الألماني ماكس شيلر أن قراءاته كانت تستحوذ علىٰ وجدانه، فكان يفرِّغ ذلك الانفعال المضطرم في جوفه بإشراك الآخرين فيما يقرؤه، فكان شيلر يقوم بتمزيق صفحاتٍ من

الكتاب الذي يقرأ فيه، ويدسُّها في يَدَيْ من يراه من زملائه ليجبره علىٰ مشاركته القراءة، ولهذا يقال إنه استخدم نُسَخًا عديدة من كتاب (ميتافيزيقا المعرفة) الذي كان باهظ الثمن[١].

وإذا مرَّ بمصيبة مؤلمة في جسده، أو اجتاحته كارثة في مالِه، حاول التخلصَ من قَبْضة القلق والإفلاتَ من وطأة الآلام بالشكوىٰ لمن يواسيه، أو يُسلِيهِ، أو يتوجع معه، ومن حمأة التواصل الإنساني ينقدح زناد الشاعر، وتتفجر مواهب الأديب، ويجوِّد العالم نتاجه، فإن طبع (النفس إذا انفردت لم تؤد أعمالها إلا ناقصة معيبة، لأن تمام أعمالها في المشاركة)[٢].

ومن محاسن الشَّريعة الإسلامية العظيمة أنها راعت فطرة الإنسان في الظمأ الرُّوحي الشديد إلىٰ الوصال مع تبدلات الأحوال، فشرعت العزاء، والعيادة، والتهنئة، والمواساة، وغيرها من العبادات ذات الصبغة الجماعية.

وصال خيالي:

ومن شدة أَثَرِ الوِصال علىٰ الإنسان، أنه يفرح قلبه وتبتهج نفسه وتبدو نواجذه مبتسِمًا حتىٰ لمجرد مرور طيف خيال المحبوب في

---

(١) التلمذة الفلسفية (٨٠– ٨١).

(٢) جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر (٢: ٨١٧).

أروقة ذهنه، فربما زاره هذا الطَّيفُ اللطيفُ الخيالي في نومه أو يقظته فانبلجت أساريره، وتدفق هرمون السعادة (الدوبامين) تَدَفُّقًا في أورِدَتِه، وأشرقت روحُه وجهَ النهار وآخره.

وقد كانت العربُ قديما تعرف جيِّدًا أثر مرور خيال المحبوب حتىٰ علىٰ الحواسّ، وسطَّرته في أشعارها بصورٍ شتَّىٰ، حتىٰ بلغ بهم أن كانوا يقولون: إن الإنسان إذا خَدِرَتْ قَدَمُه، ذَكَرَ اسمَ أحبِّ الناس إليه فسكنَتْ! وقال الشاعر العاشق في هذا المعنىٰ:

أثيبي عاشِقًا كَلِفًا معنًّىٰ   إذا خَدِرَتْ له رجلٌ دعاكِ

وقد جاء في هذا المعنىٰ حديثٌ رواه الإمام البخاري في الأدب المفرد، ورواه غيره، فعن الهيثم بن حنش قال: كنا عند عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- فخدرت رجله، فقال له رجل: اذكر أحب الناس إليك! فقال: محمد ﷺ. **فكأنما نَشِطَ من عِقال**[1].

ومعنىٰ البيت والحديث -عند من صَحَّحَه من أهل العلم- هو أن مرورَ ذكرىٰ المحبوب وعبورَ موكبِ طيفِهِ في الخيال يحرِّك الحرارة الغريزية في البدن، فتتحرك أعصاب الرِّجل، ويجري فيها الدم، ويذهب خَدَرُها.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب ما يقول الرجل إذا خدرت رجله (٩٦٤).

وبالمقابل كانوا يستشعرون ارتخاءَ المفاصل وخدرِها لذكر ساعة الفراق كما قال ذو الرُّمَّة:

وذِكْرُ البَيَنِ يَصْدَعُ في فؤادي ... ويُعْقِبُ في مفاصليَ امْذِلالا

وامْذِلالُ المفاصل فتورُها وخدرُها، فانظر -أيها القارئ الكريم- لقوَّة أثر الوصال ولو كان مجرد خاطر ذهني علىٰ هذا الجسد الإنسانيّ!

اللذة تتبع الشعور:

هذا الوصالُ البشريُّ المبهِجُ للنَّفْس إنما يقف وينتصب واقفًا علىٰ قدميه علىٰ جِدار واحد فقط، ألا وهو جدار المحبة، فإذا تصدَّعَ هذا الجدار، أو تزحزح قليلا من موضعه أمسىٰ ذلك الوصالُ المنعشُ للروح عبئا ثقيلا، وغدا بلا معنىٰ ولا لذَّة، لأنه نضب ماؤه الذي يروي جذوره، وغابت شمسه التي تقوي فروعه، وماتت روحه المنبثَّة في أطرافه، وما عاد الإنسان يستمتع بالوصال، ولا يستلذّ باللقاء، ولا تنعشه الذكرىٰ، ولا يتواصل إلا لتأديةِ غرضٍ أو لكفِّ أذىٰ، وأضحىٰ وصاله شبيهًا بوصال أبي الطيب المتنبي مع صاحبِهِ الذي قال عنه:

ومن نكد الدنيا علىٰ الحر أن يرىٰ ... عـدوا له ما مـن صـداقته بد

فإذا تضاعفت محبَّة الإنسان، وقوي شعوره بهذه المحبوبات، فإن لَذَّة وَصْلِها تتضاعف، وإن تضاءلت المحبة فإن لذة وصلها

تتضاءل بمقدار ذلك، وإذا اضمحلت المحبة تلاشت اللذة وفقدت عِلَّةَ وجودها، (فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة، فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب وأشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم)[١].

نعم .. فوصال المحبوبات أيًّا كانت هو جوهر سعادة هذا الإنسان ولذة قلبه، وأوفر الناس حظًّا في دنياه هو مَن تيسر له مواصلة ما يحب ومَن يحب، من الأشخاص، والمراتب، والمناصب، والمعارف، والعلوم.

الطموح المنهك:

وأشقاهم في حياته، وأكثرهم تعبًا ولَغَبًا وإنهاكًا هو ذلك الذي يقطع مراحل عمره وهو يلهث وراء أشلاء الرغبات وأجداث الآمال، المريد ما لا يجد، الواجد ما لا يريد، فلله هو! كم للحزن والأسىٰ في قلبه من حصونٍ ومعاقل!

ولذا تتوافد الهموم وتتوالد الغموم دوما علىٰ ذوي المطامح العالية والآمال البعيدة، لأنهم يطلبون فوق ما يطلبه غيرهم، ولا ينالون مرتبة إلا تاقت نفوسهم إلىٰ وِصال ما فوقها، فربما طال شقاؤهم كثيرا من هذه الجهة، فكانت نتيجة حتمية في الناس أن يخلو من الهمِّ

---

(١) إغاثة اللهفان (١: ٣٣).

أخلاهم من الفِطَنِ، وأن ينعم أخو الشقاوة منهم في حضيض الجهالة، قال الشاعر في تصوير حالة مقارِبة:

إذا كنــت لا تنفك تطلــب غــاية وترقىٰ لأخرىٰ، عشتَ دهركَ متعبا

فقف تسترِح.. حيث انتهيتَ ولا تكن مُعَنَّىٰ بما تلقــىٰ شَقِيًّـــا مُعَذَّبَا

سعادة مكدرة:

إذا تأملت قليلا وجدتَّ أن جميع تلك المحبوبات الدنيوية إذا تحصَّلت وأسعدت أحبابها بوِصالها، فهي مشوْبةٌ بكدر، مسبوقةٌ بذل، ملحوقةٌ بأذىٰ، فإذا كان أسعد المحبين هم من تيسَّرَ لهم وِصال المحبوب عن رغبةٍ متبادلة، فهذا الوِصال السعيد وإن طاب زمنا، فهو مهدَّدٌ بفراقٍ ممضٍّ للروح أكثر من سواه، وكلما عظمت المحبة، وطابت اللذة، وكان الفراق أبديًّا، كان الجرح أشد ألَمًا وأبطأ التئامًا، ففراق الحبيب المنغرس بالفؤاد يشبه انتزاع الأعضاء المتلاحمة، وهو أكثر ما روّع الأحباب علىٰ مرّ الدهور، حتىٰ أكثروا من شِكاية لحظات الفراق، وتفنَّنوا في ذكره حتىٰ بالَغَ أحدهم فَقال:

لو لا مفارقة الأحباب ما وجدت لهــا المنايا إلىٰ أرواحنا سبلا

فجعلَ سبيلَ الموتِ منحصِرا في مفارَقَة الأحباب.

ولِشِدَّة قلقِ المحبين من لحظات الهجر وخوفِهم من ساعات الفراق، ربما تحاشوا توطيدَ كثيرٍ من العلاقات الحميمية تَفَكُّرًا في

المآلات واستحضارا للعواقب، فكم مّن هجرٍ كان سببَه الخوفُ من الهجر، وفراقٍ كان باعثَه الخوفُ من الفراق!

رأىٰ الأَمر يُفْضِي إِلَىٰ آخِــرٍ فصــــــيَّرَ آخِــــــــره أَوَّلا

ملحد زاهد:

وقد حمل هذا الشعورُ الخانق تجاه المحبوبات الدنيوية بعضَ الملاحدة القدماء الذين لا يرجون جنةً ولا يخافون نارًا علىٰ أن يحث علىٰ (الزهد في الدنيا، لأنه يرىٰ أن الاستكثار منها موجب الهم والغم، ويقول: كلما كثر التعلُّق بها، تألمت النفس بمفارقتها عند الموت، فكان هذا غاية زهدهم في الدنيا)[١].

ووجدت هذه الفكرة الإلحادية القديمة أصداءً في الفكر الإلحادي الحديث حتىٰ ذكر الفيلسوف الفرنسي المعاصر لوك فيري ناقلا بأن: (التعلُّقُ هو الجنون بعينه، إذا ما اعتبرنا أن حقيقة الكون تكمن في زوال كل شيء وانقطاعه، إذا حدث وارتبطتَّ بشيء ما أو بشخص معين، سيأتي زمن تنتهي فيه هذه العلاقة مخلِّفَةً وراءها كافَّة أنواعِ الأحزان)[٢]، فلم يعد الزهد كما يُتَوَهَّم فكرةً دينيةَ المنطلق والباعِث، وإنما هؤلاء ملاحدة يحثون علىٰ الزهد والتقلُّل من الدنيا

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب (٢: ١٨٧).

(٢) مقال العودة إلىٰ الفلسفات القديمة، منشور علىٰ الشبكة.

ويرغِّبون فيه، ولكن زهد المؤمنين: ترك ما لا ينفع في الآخرة. وزهد الملاحدة: ترك ما يزيد آلام فراق الدنيا. ولذلك يقول ابن تيمية: (أكثر ذمِّ الناس للدنيا ليس من جهة شغلها لهم عن الآخرة، وإنما هو من جهةِ ما يلحقهم من الضرر فيها)[1].

ولذلك تجد كثيرًا من الحِكَم التراثية الصادقة في ذمِّ الدنيا والداعية إلىٰ ترك الإخلادِ إليها صادرةً عن أناسٍ لم يُعرفوا بالزهد فيها، وإنما كانت الشكوىٰ من إرث المكابدة والمعاناة، وذلك من نحو قول أبي الطيب:

فذي الدّارُ أخونُ من مُومِسٍ   وأخـدعُ مـن كِفَّـة الحابِلِ
تفانـىٰ الرجـال علـىٰ حبِّهـا   وما يحصُلـون علىٰ طائلِ!

ويمكن أن يذكر في هذا السياق حركة التقلُّلِيَّة (المينماليزم) التي أصبحت موضة في بعض شبكات التواصل ولها رواد متحمسون ومؤلفات متداولة نحو كتاب (وداعا للأشياء) لفوميو ساساكي، وهي فلسفة تدفع بوضوح نحو الزهد والتقلل من المقتنيات الدنيوية لدوافع مختلفة.

الحب المؤذي:

وقد تأملتُ كثيرًا في وِصالِ النَّاسِ مع محبوباتهم الأرضيَّة،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٠: ١٤٩).

ووجدتُّ عامَّتَهم يشقىٰ بما يحب أضعافَ شقائه بما يَكْرَه، ويتألم بمحبوباته أكثر من تأذِّيهِ بمكروهاتِه، فجرت سنةُ الله في الأحباب علىٰ تباعد العصور وتنائي الديار أنَّ مَن كان داخل القلب كان أقدرَ علىٰ الأذىٰ، وأمعنَ في الإيلام، وأعلمَ بالـمَقاتِل!

قال أحد المحبين القدامىٰ متألِّمًا ومصوِّرًا اتحاد النعيم والعذاب والحلاوة والمرارة في ذاتٍ واحدة:

أنتِ النَّعيم لقلبي والعذابُ له فمـــا أمـــرَّكِ في قلبي وأحلاكِ

مكدرات شتى:

وليس الفراقُ وحدَه هو ما يكدِّر نعيمَ الوِصال بالمحبوبات الدنيوية، بل هناك جيوش السأم، وجحافل الاعتياد، وكتائب الملل، وطوارئ تغيرات المحبوب، وتبدُّلات مشاعره، وزوال الرغبة، وانقطاع النفع، وانمحاء الحُسن، وتبدُّد هالةِ الأمنيات بعد حصولِها ثم اليقين بمفارقتها، والرضوخ الاختياري لمعتقلات الانطباعات[١]، وفناء اللذَّات الجسدية[٢]، وموت الصَّداقة، وتشظِّي الأسرة، وغير ذلك من المكدرات التي يزيد ألمها تصاعُدِيّا مع زيادة درجة التعلق وشدة القرب وعِظَم المحبة.

---

(١) أفردتُّ هذا المكدِّر بفصل خاص في هذا الكتاب، انظر ص٣٩.
(٢) أفردتُّ هذا المكدِّر بفصل خاص في هذا الكتاب، انظر ص٥٣.

فأما **طوارئ تغيرات المحبوب** فقد قال أحد المحبِّين الأوائل:

وقد زَعَمَتْ أني تغيرتُ بعدها ومـن ذا الذي يا عزُّ لا يتغير؟!

يقول هذا الشاعر الرقيق: لست بتغيُّري المزعوم استثناءً نادرًا من المحبوباتِ الأخرىٰ، فالجميع يتغير من حال إلىٰ حال، هذا هو المعنىٰ القريب الذي يلوح من هذا البيت لأول وهلة.

وعندي أن ثمة معنىٰ آخر دقيقًا يظهر لك حين ترفع غِلالة الألفاظ برِفق، وتفرك الشطر الثاني بأطراف الأنامل، وهو أن هذا الشاعر الرقيق أراد بسؤالِهِ المباغِت التلميحَ بلطفٍ متناهٍ إلىٰ التغيرات الطارئة عليها أيضًا، فلذا عَدَل عن موقفِ دَفع الدعوىٰ، إلىٰ موقفِ تعميمِ الدعوىٰ، ومحبوبته داخلةٌ بطبيعة الحال دخولا أوليًّا في هذا العموم، فهي التي تغيرت أيضًا، وصدق وبرَّ: فمن ذا المحبوب البشري الذي يبقىٰ علىٰ حال واحدة ولا تدهمه أعاصير التغيرات ولا تزحزحه رياح التحولات؟!

وأما تبدُّد هالةِ الأمنيات بعد حصولِها ثم اليقين بمفارقتها: فسائر الأمنيات والرغبات الدنيوية عند حيازتها والاستيلاء عليها تفقدُ بريقَها الأوَّل، وتبهت في نفس صاحبها شيئًا فشيئا، ثم هي بعد الظَّفَرِ بِها مَشوبَةٌ بألَمِ اليقين بالمفارَقة الوشيكة، وهذا اليقين مِن أشدِّ الغمّ الذي ينغِّص جميعَ الملذَّات الدنيوية الحاصِلة، كما قال أبو الطيب:

أشدُّ الغمِّ عندي في سـرورٍ تيقَّـن عنه صاحبه انتقالا!

ولذلك كان الخلود الأبدي من أعظمِ جوانبِ النعيمِ الأخروي، فلا يكاد يُذْكَر نعيم أهل الجنة في القرآن إلا وتذكر معه خصيصة «الخلود»، فاليقين بالمفارَقة غَمٌّ معجَّل.

❊❊❊

وأما موت الصداقة : فلا ينتبه كثيرون أن مقولاتِ الاستغناء عن الآخرين والتظاهر بالاكتفاء والانطواء الذاتي التي تنتشر اليوم بغزارة في شبكات التواصل الاجتماعي هي من إفرازات عصر الفردانية وطغيان المادية، وأنها مجردُ استجابةٍ مباشرةٍ لموجات فكرية بعيدة المدىٰ، فمن المعلوم أنه في كلِّ مرحلة زمنية ثمة مقولاتٌ متداولة تطفح علىٰ السطح بغزارة، وتصبح شعارًا للفاعلين في الشأن العام، هذه المقولات متأثرة بظروف مختلفة وغالبها ليست ظروفًا معرفية، وإنما هي مجرد استجابة تلقائية لموجة عنيفة تتحكم بالمزاج الثقافي، وتجرف معها كثيرين بلا شعور كافٍ منهم، فهم يتوهَّمون توهُّمًا أنهم امتطوا مركبهم الفكري الجديد عن قناعة ذاتية، ويخيَّل إليهم أن قاربهم الفكري تحركه مجاديفهم الصغيرة وحدها، والحقيقة القاسية أنهم إن أوقفوا أيديهم عن الحركة والتجديف لما تغيرت سرعة القارب ولا اختلفت وِجْهَته، فهم مجرد أصداء صغيرة لهتافات كبيرة، ومحض ظلال تتحرك لا إراديًّا تبعا لحركة الشمس، وذرَّة متناهية في الصغر تدور في فَلَكِ المجرَّة، لكن يحبُّ الإنسان دومًا أن يجمِّل أسباب

تحولاته، ويُزَخْرِف بواعِث تحركاته، ويعيد صياغة تاريخه بصورة تظهره بطلا فاعلا في كل المراحل، فجرت عادة الناس إذا تحولوا خوفًا أو طمعًا أو غير ذلك أن يصبغوا عباراتهم بالشيب ويهدّجوا أصواتهم بالحكمة ليوهِموا أنفسهم أولا وغيرهم ثانيًا أن ذلك التحول وليد البحث العلمي المتجرِّد ووريث النظر المعرفي العميق.

هناك موجة مادية عالمية منذ عقود تدعو إلىٰ الانطواء علىٰ الذات، وحصر التفكير والحركة في محيطِ مَصالِحها، وتلاقي هذه الدعوات الأنانية استجابةً شعبيةً جارفةً في المجتمعات الغربية، فالكاتبة الأمريكية ملودي بيتي تكتب كتابًا بعنوان: (وداعا للاعتماد المرَضي علىٰ الآخرين)، ويحقق هذا الكتاب نجاحًا هائلا وتداولا واسعًا، فقد بِيعَ منه أكثر من خمسة ملايين نسخة بلغته الأصلية، تقول ملودي في كتابها نحو هذه العبارات ذات الدلالات المكثَّفَة: (أقصر طريق للجنون هو أن نهتم بأمور الآخرين، وأقصر طريق لسلامة العقل والسعادة هو أن نهتم بأمورنا الخاصة، لن يكسب المرء شيئا من عونه للناس، بل إن عونه للناس يشتت انتباهه عن مصالحه التي لا يمكن أن يرعاها سواه).

ورغم ذلك فمن خَبرَ الأيامَ أدرك أن الصداقة الحقيقية بحمولتها الدلالِيَّة العميقة، وبكلِّ ما تحمله من معاني الشوقِ والتضحيةِ والتَّفاني

والفِداء كثيرًا ما يكون لها عمرٌ زمني أقصر من عُمر الأصدقاء، فهي معانٍ قلبية حيَّة كثيرا ما يعتريها الشد، والجذب، والركود، والانشغال، والاعتلال، والوفاة السريرية، والوفاة التامة، وليس هذا منحصرًا بظروف حقبة زمنية معينة كالعصرِ المادِّي مثلا، وإنما كثرت شِكاية الشعراء عبر التاريخ من تنكُّر الأصدقاء وتلوُّنهم وقِلَّةِ وَفائهم، وبالَغَ صفيُّ الدِّين الحلِّي كثيرا فجعلَ «الخلّ الوفي» ثالث المستحيلات مع «الغول» و»العنقاء»، وعلىٰ عادة أبي الطيب المتنبي في الإمعان والمبالغة في تصوير المعاني المتداولة بين الشعراء قبله، أفتىٰ بجواز تروية الرِّماح من دماء الناس دون رحمة، وجعل خبرته بطبائع البشر مسوغا فقهيا كافيا بين يدي فتواه الدموية، فقال جازمًا:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روّىٰ رمحه غير راحم!

جثامين الأصدقاء:

من الدروس اللافتة التي أفضىٰ بها الكاتب هشام شرابي في مذكِّراته (الجمر والرماد)، وظلَّتْ تلوح لي في منعطفات زمنية عديدة قوله: (أدركت أن الصداقات تذوي وتموت ولكننا نرفض الاعتراف بذلك ونتظاهر بأنها حية، فنحمل في أضلاعنا جُثَثًا لا حياة فيها)[1]، فكم ماتت معاني الصداقة ولفظتْ أنفاسها مبكِّرًا داخل صدور

(١) الجمر والرماد (٣٠).

الأصدقاء، وأمست جثة هامدة رغم وِصالهم وحياتِهم، ورغم عنادهم ومكابرتهم بتأخيرِهم ساعةَ الدفن.

***

وأما تشظِّي الأسرة: فالأسرة هي أصغر وِحدة في المجتمع، وهي القلعة الأخيرة التي يأوي إليها الإنسان من زَمهَرير الحياة وسمومِها، فهي بمثابة الوكر للطائر إذا أرخىٰ الليل سدوله في الأرجاء، ومع ذلك فلا يمكن الركون إليها ركونًا تامًّا، فالأسرة تأخذ مع مُرورِ الزمان شكلا هَرَمِيًّا يتسع من أسفل ويضيق من أعلىٰ رويدًا رويدًا، فيولد الإنسان بين والديه وهو أسفل الهرم علىٰ ضلعه الممتد لصيق بإخوته وهم في منزلة واحدة شديدة التقارب والتواصل والارتباط، ولا يتخيل أنه سينأىٰ عنهم يومًا من الدهر، ثم لا يمرّ زمن يسير إلا ويتكون لكلِّ واحد من هؤلاء الإخوة كينونة خاصة وعالم جديد، وتتفرع عنه أسرة جديدة يلتصق بها التصاقًا شديدًا وترتبط آماله وآلامه بإسعادها، وبقدر التحامِهِ بعالمه الجديد ترتخي عُرَىٰ مفاصل علاقته بالعالم السابق، ثم لا يمرُّ زمن إلا ويصبح هو بدوره في أعلىٰ الهرم ويتفرع عن فروعه عوالم جديدة يلتحمون بها، فيكوِّن أولاده أُسَرًا يلتصقون بها بدورهم وترتبط آمالهم وآلامهم بإسعادها، ويضيق الخناق تدريجيًّا علىٰ من كان في أعلىٰ الهرم، وهكذا في دورة حياتيّة مؤلمة لا تنقطع.

مواطن من الدرجة الثانية:

وقد صَوَّرَ الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- وهو في عِقد الثمانين هذه الصورة الحياتية المتكررة بكل براعة: (أمي التي كنت أتصور أنني لا أستطيع أن أنفصل يومًا عن هذه الأم التي هي مستودع آلامي وآمالي، ثم قضىٰ الله عليها فماتت، فتكونت أسرة جديدة عشت فيها أنا وإخوتي كأننا صفحات من كتاب واحد، ثم تفرقنا وصار لكل واحد أسرة، ثم نشأت لي أسرة جديدة، وتزوجت وجاءني بنات، وكنت أحس أن ارتباطي ببناتي ارتباط لا انفكاكَ منه، وأنني لا أستطيع أن أبتعد عنهن، ولا أن يبتعدن عني، لكن غلبت سنة الله في خلقه، فكبرت أول بنت فجاء من يطلبها فأخذها وذهب بها، فصار لها بيت مستقل عن بيتي، صارت لها أسرة هي أقرب إليها من أسرتها الأصلية التي هي أسرة أبيها وأمها، وتفرق بقية البنات، وصار لكل بنت بيت هو بيتها الأصلي، وصارت لها أسرة هي أسرتها الأصلية، وصرت أنا كأنني شخص مواطن من الدرجة الثانية، وما كنت أتوهم أنه صلة دائمة لا تنفصم انفصمت)[١].

لكل كاتب ومتحدث ذِروةُ إلهامٍ وسِدْرةُ تجلٍّ يصل إليها، وعندي أن الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- في حديثه العفوي التلقائي هذا كان يتحدث من أعلىٰ تلك الذروة، وأن هذا الحديث

---

(١) ملخَّصًا من كلامه الصوتي رحمه الله.

العفوي الآسر يفهم صدقه ودقَّته ولوعته جيِّدًا كلُّ من امتدَّ به العمر، وَرَكَد ماء الشباب في جَبينه، وجرّب تحولات بيت الأسرة وتشظِّيها، فربما انزوىٰ يومًا في غرفته وحيدًا، وشعر بوهَن الروحِ وهي تختنق بحبال الذكريات، وأنشد مع الطغرائي بصوتٍ متهدِّج:

هذا جَزاءُ امرئٍ أقرانُه درَجُوا   من قَبْلِهِ فتمنَّىٰ فُسحةَ الأجلِ

***

حيرة خانقة:

إذا كان أُنس هذا الإنسان وسعادة قلبه ولذة روحه هو في التواصل، وكان تواصله بمن يحب وما يحب محفوفًا بكل هذه المنغِّصات الممضَّة والأحزان الـمُوجعة، كفراق الأحباب، وطوارئ تغير أحوالهم، وفناء اللذات، وموت الصداقة في نفوس الأصدقاء، وتشظي الأسرة، وغير ذلك.. فهل سيبقىٰ حياتَه تعيسًا يطارده الإحساس العميق بالضياع؟ وما الطريق إلىٰ الوصالِ السرمدي والسكونِ الأبدي؟

الاتصال الآمن:

والجواب أن الصِّلة الوحيدة المأمونة في هذه الحياة الدنيا هي الصلة بالأول والآخر والظاهر والباطن، وأن الوصال السعيد الذي لا يكدره شقاء هو اتصال العبد بربه القيوم القائم بتدبير خلقه وركونه

إليه، فهو الركن الوحيد الشديد الذي يأوي إليه العبد ولا يخشىٰ من تلك الجهة التهاوي والسقوط، ولا يخاف مفاجآت التنكُّر وتقلُّب الجفاء وتلوُّن الصدود، وهذا ليس طرحًا وعظيًّا باردًا يُروىٰ ثم يُطوىٰ، بل هو حقيقة علمية قصرنا كثيرًا في العمل بموجبها، فهذا العضو الصغير التي ينبض بين جنبات الصدر فيه (فاقة لا يسدُّها شيء سوىٰ الله تعالىٰ أبدًا، وفيه شعث لا يلمُّه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده)[1]، ومن عَمَرَ قلبه بالمحبوبات الأخرىٰ وجعلها مرتكز فؤاده وغاية أنسه وغفل عن هذه الحقيقة العظيمة أو جعلها علىٰ هامش حياته، فإن (سنة الله تعالىٰ فيمن هذا شأنه أن ينكِّدَ عليه محابَّه ويُنَغِّصَها عليه، ولا ينال شيئا منها إلا بنكدٍ وتنغيص، جزاءً له علىٰ إيثار هواه وهوىٰ من يعظمه من الخلق أو يحبه علىٰ محبة الله تعالىٰ)[2]، فحينما تحب أحدًا من الناس فلا تخلق له في قلبك عجلا جسدًا له خوار، فما أسرع أن يرجع موسىٰ عقلِك لتدرك أن كلَّ حبٍّ بشريٍّ يزيد عن حدوده فحقُّه أن ينسف في اليمِّ نسفًا!

وقد ذكر ابن حزم -رحمه الله- أنه بَحَثَ عن غَرَضٍ يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه، فوجده (طرد الهم) ثم شرح كيف

---

(١) إغاثة اللهفان (١: ٧١).

(٢) الوابل الصيب (١٤).

كان ذلك المطلوب لم يقتصروا علىٰ مجرد طلبه، بل ذكر أن البشر لا يتحركون أصلا أي حركة إلا في تطلُّبِهِ، ثم ذكر أن الهمَّ الدنيوي لا يتبدد إلا بتوثيق الاتصال بالله تعالىٰ والعمل له وحده، فقال: (فاعلم أنه مطلوب واحد وهو طرد الهم، وليس له إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالىٰ)[1].

عطاء في هيئة الحرمان:

إذا كان التواصل البشري محفوفًا بكل ذلك الأذىٰ والتكدير، فإن العلاقة الصادقة بالله هي عطاء زاخر حتىٰ فيما ظاهره المنع والحرمان، فإن العبدَ إذا أقبل علىٰ ربِّه وصدق في إقباله جازاه الله بأكثر مما عمل، ومدَّه بأكثر مما كان يرجو من الفضل، فإن (العبد قد تنزل به النازلة فيكون مقصودُه طلبَ حاجته، وتفريج كرباته، فيسعىٰ في ذلك بالسؤال والتضرع .. ثم يكون في أول الأمر قصده حصول ذلك المطلوب: من الرزق والنصر والعافية مطلقًا، ثم الدعاء والتضرع يفتح له من أبواب الإيمان بالله عز وجل ومعرفته ومحبته، والتنعم بذكره ودعائه، ما يكون هو أحب إليه وأعظم قدرا عنده من تلك الحاجة التي همَّتْه، وهذا من رحمة الله بعباده، يسوقهم بالحاجات الدنيوية إلىٰ المقاصد العلية الدينية)[2].

---

(١) الأخلاق والسير (١٦).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢: ٣١٢- ٣١٣).

فإذا سلَّمْنا بمقدمة هذا الفصل بأن التواصل هو إكسير السعادة البشرية، فهذا التواصل الإلهي هو التواصل الوحيد الآمن الذي يبقىٰ ويدوم، ويستمطر غيوث العطاء حتىٰ فيما ظاهره الحرمان، وبقية ألوان التواصل المتاحة أحسن أحوالها أن تخلقَ سعادة عابرةً تشوبها أكدار، ويخلُفُها انقطاع، وتتخللها تحولات، والعاقل يجعل مرتكز سعادته فيما يدوم وينفع، ويقدِّمُه علىٰ ما يضمحلُّ ويتبدَّل.

معتقلات الانطباعات

(من عَرَفَ الناس استراح).

الفضيل بن عياض

إذا أردنا أن نستعمل تقسيم الكاتب الأمريكي وندل هولمز للشخصية الإنسانية، وذلك حينما قال: إن الإنسان -كلَّ إنسان- إنما هو ثلاثة أشخاص في صورة واحدة، الشخص الأول: الإنسان كما خلقه الله، والشخص الثاني: الإنسان كما يرىٰ نفسه، والشخص الثالث: الإنسان كما يراه الناس ..

فإننا نقول: إن الإنسان كما خلقه الله هو صورة شخصيَّتِه المطابِقة تمامًا لواقِعِه، والإنسان كما يرىٰ نفسه هو صورة شخصيته الملتقَطة من زاوية قريبة، والإنسان كما يراه الناس هو صورة شخصيته الملتقطة في زاوية بعيدة يعتريها كثير من الغَبَش والضبابية، وهي تلك الانطباعات التي تتكوَّن في أذهان الآخرين عن شخصياتِنا، وأكثرنا يدرك تمامًا أن كثيرًا من هذه الانطباعات موغِلَة في الظاهرية، وتفتقر للدقَّة بصورة مناقضةٍ أحيانا للواقع، وفي أحسن الأحوال لا تطابقه تمامًا، ومع ذلك فكثير من جهودِنا في إصلاح ذواتنا تجري في فَلَكِ إصلاح الشخص الثالث، وهذا هو الرضوخ الاختياري لمعتقلات انطباعات الآخرين.

***

كثيرٌ من الناس يعيش ألَمًا يوميًّا حالةَ وصالِه مع الآخرين، وذلك لوجود مسافةٍ بعيدةٍ أو قريبة بين واقعه الحالي وبين ما يطمح إليه في

المستقبل، ثمة فجوة بين صورته الآنية، والصورة التي يطمح أن يصل إليها مستقبلًا إما في العلم أو العمل أو المال أو الوظيفة أو المكانة الاجتماعية .. أو غير ذلك.

وليست بواعثُ الألم تكمُن في مجردِ وجودِ هذا الطموح، إنما الإشكال أن هذا الطامح يتشبع اليومَ بما يتوق لأن يُعطاه في الغد، ويبعث للآخرين -وخصوصًا الذين يحبُّهم- رسائل متواصلة بشعور أو بلا شعور عن تحقيقه لتلك الصورة الحالمة، ويتعامل مع غيره لا وِفْق مواهبه الحالية، وإنما وفق إمكاناته المستقبلية، فإذا نجح في تشكيل ذلك التصور الكاذب لدىٰ الآخرين صار مشغولًا حين يلقاهم بحراسته وإثباته، وأمسىٰ غايةُ همِّه حفظَ جبلِ الانطباعات الجليديّ من الذوبان، فتراه منهمكًا بتقديم البراهين المستمرة التي تحقق صورته المتخيَّلة لا الواقعية، وفي هذا السلوك عذابٌ ممضٌ للروح منهكٌ للنفس ورضوخ اختياري منها للولوج في معتقلات الانطباعات، وصدَقَ الرافعيُّ حين قال: (أشدُّ سجونِ الحياةِ فكرةٌ خائبةٌ يُسجن الحيُّ فيها)[1]، فالناس لمن خبرهم يمنحون ويمنعون الثناء والرضىٰ لا وفق ميزانٍ ثابت، فإذا تعلقت النفس بتقييماتهم وانطباعاتهم وآرائهم فقد حَفَرَتْ قبر راحتِها بيديها!

❊❊❊

---

(١) وحي القلم (١: ١٦١).

توقَّف أحدهم عن الإنتاج المعرفي بعد النجاح اللافت الذي حقَّقَه الكتاب الأول، ولا زلت أذكر كلمات أحدهم محلِّلا ذلك التوقف المفاجئ: إن مُشْكِلَة ذلك الكاتب تكمُن تحديدا في ذلك النجاح! فبعد النجاح الذي حققه نَضَبَ قلمُه عن الإنتاج، لأنه وقع في أسر انطباعات الآخرين الذين يتوقعون منه نتاجا مماثلا في أدنىٰ الأحوال، وكثيرا ما يكون وراء النجاحات لحظات إلهام داخل النفس وظروف ممهدة خارجها قد لا تواتي الكاتب في كل مراحله، فكان ذلك النجاح الأولي مقبرة نتاجه المعرفي بدل أن يكون ملهِمًا لنجاحات أخرىٰ.

وسمعت مرةً أحد الفاعلين في الشأنِ الثقافي يذكر أنه كان قَلِقًا إزاءَ كتابه الجديد، وذلك لأن كتابه الأخير حقق نجاحا واسعا، فكان يشعر بالقلق حتىٰ اطمأنَّ بعد القبول النسبي لكتابه الجديد، وأحدهم قال لي: إذا أردت أن يكون لك القبول في مجالٍ ما، فأكثر من تناوله والطَّرق حوله بصورٍ شتىٰ، لأن الآخرين مع كثرة الطَّرْق والتَّناول يدخلونك في قالَبٍ ذِهني انطباعي يمنحك الرخصة والقَبول.

أوهام الانطباعات البشرية:

انطباعات الآخرين -مهما تَلَفَّعَتْ بالموضوعيَّة- هي مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بمشاعرهم تجاهنا، فلذا هي كثيرة التقلب والتحول تبعا للمشاعِر، فإذا أحبوك تفننوا في رسم صورة حالمة لك بين السحاب،

وإذا غضبوا رموك غير مكترثين بين الكلاب، ورغم جهودك الكبيرة في تعديل انطباعٍ سابقٍ في أذهان الناس وخَلقِ انطباعٍ جديد، فكثير من الذين تخالطهم لم يمحوا آثار الصورة السابِقة كما تتوهَّم، إنما يضعونها في أرشيف قصيّ أيامَ الرضىٰ، ويستدعونها عند الحاجة في لحظاتِ الغضب.

***

وانطباعات الآخرين -مهما تجلَّلَتْ بالعقلانية- كثيرا ما تتخلَّق من جدارِ العدم، وتتراكم من طينِ الوهم، وتتكوّن من لا شيء ماديّ البتّة، وإنما هي مجرد خيالات وظنون، فَمِن ضعف كثير من التصورات البشرية أنها ذات قابلية شديدة للخلط بين الحقيقة والدعوىٰ، والإثبات والنفي، والواقع والخيال، ومما يحكىٰ في هذا الصدد أن الرئيس الأمريكي (جونسون) في أثناء خوضه انتخابات مدينة تكساس، طلب من سكرتيره أن ينشر في الصحف خَبَـرًا ينفي فيه عن منافسه في الانتخابات (لي أو دانييل) أنه ضُبِطَ وهو يضاجِع الحيوانات!

فقال السكرتير مستغربًا: لم يتهمه أحد بذلك!

فقال جونسون: وهذا ما نفعله نحن! ننفي عنه التهمة ولا نتهمه! انشر النفي ودع الناس يقرؤون النفي ويتساءلون، وسيؤكد هو النفي.

وهكذا سيبقىٰ في أذهان الذين قرؤوا الخبر المنفيَّ شعور عميق أن ثمة ظلالا من الحقيقة تتوارىٰ وراء ركامِ خبرِ النفي!

والقارئ يستحضر من تراثنا العربي الأدبي القِصَّة الشهيرة للبيت القديم:

قد قيـلَ ذلك إنْ حَقّا وإن كذبا   فما اعتذارك من قولٍ إذا قيلا؟![1]

وكلا القصتين تؤكدانِ بوضوحٍ تامٍّ قابليةَ الذهنِ البشري للإخلاد للوهم، والاستنامة للخيال، وعمومًا أثبتت التجارب أن الأكاذيب المتعلقة بالأعيان يصعب محو آثارها من الأذهان.

***

وانطباعات الآخرين -مهما تظاهَرَتْ بالعِلْميَّة- تتحكم بها المؤثرات الجانبية تحكُّمًا بالغًا، فأكثر الناس يفقد القدرة علىٰ تقييم المقالات الرديئة إذا التصقتْ بأسماء كبيرة، وعلىٰ تثمين المقالاتِ العميقة إذا التصقتْ بأسماء مغمورة، فالهالة النفسية للأسماء ذات سلطان نافذ علىٰ عقولهم، وتفقدهم القدرة علىٰ التمييز والحكم المتجرد تجردًا تامًّا، وربما وصلت هذه التأثيرات غير العلمية إلىٰ بعضِ الخاصة، فقد ذكر إسحاق الموصلي أنّه أنشد أحد الأدباء اللغويين الكبار هذين البيتين:

---

(١) الأغاني (١٥: ٣٥٢).

هل إلىٰ نظـرة إليك سـبيلُ   يرو منها الصّدىٰ ويُشْفَىٰ الغليلُ
إنَّ ما قلّ منك يكثُرُ عـندي   وكثـيرٌ ممـن تحـبّ الـقلـيلُ

فأعجب بهما الأديبُ اللغوي الكبير إعجابًا كبيرًا، وقال: (هذا الديباج الخسرواني، هذا الوشي الإسكندراني، لمن هذا؟) فأخبره إسحاق أنّ البيتينِ له ومن نظمه، فقال الأديب علىٰ الفور: (أفسدته أفسدته، أما إنَّ التوليدَ فيه لبيِّن!)[1].

❊❊❊

ومن الشواهد الطريفة أنه كان في القرن الماضي مجلَّة اسمها (المصوِّر)، وكان محرر المجلة صالح جودت -وهو شاعر وأديب- ينشر في كل عددٍ قصيدةً لشاعر معروفٍ من شعراء العالم العربي، وقد ذكر غازي القصيبي -الذي كان طالبًا صغيرًا وقتها- أن أقصىٰ أحلامه في تلك المدة أن ينشر شيئًا من شِعْرِه في تلك الزاوية الأدبية، فكتب رسالة إلىٰ محرر المجلة يخبره فيها أنه طالب في المرحلة الثانوية، وَضَمَّنَ رسالته آخرَ قصيدةٍ كتبها والتمس من المحرر نشرَها، فجاء الرد من المحرر الشاعر صادمًا له: (قصيدتك تدل علىٰ موهبةٍ، لا زالتْ برعما يتفتح، اقرأ كثيرا فلا ينقصك إلا التعمُّق)، فأشار عليه أحدهم أن يعاود الإرسال للمجلة بقصيدة أخرىٰ ولكن باسم

(١) الأغاني (٥: ٢٢٨).

آخر، وأن يُصَدِّرَ رسالته بدِيباجة متعالية، وذلك نحو قوله أن الشاعر تقديرًا منه لمكانة محرِّر المجلة صالح جودت فإنه يخصُّه بقصيدة من شعرنا (هكذا بنونِ التعظيم) الذي لم يُنشر من قبل في أي من دواويننا المطبوعة، يقول القصيبي: (وكم كانت دهشتي بالغة عندما تصفحت مجلة «المصور» بعد أسبوعين فإذا بالقصيدة تحتل الركن العتيد)[1]. وهذه الدهشة البالغة تَتَبَدَّد إذا عرف الإنسان طبائع الناس وحقائقهم، وأدرك كثيرا من معاييرهم الحقيقية في التقييم.

أفخاخ المديح:

وكثير من الأذكياء يتحاشىٰ أن يأخذَ الناسُ عنه انطباعًا كاذِبًا ولو كان مَدحًا، وذلك لمعرفته العميقة أن النَّاس بِقَدْرِ ما يرفعون المرءَ فوق مرتَبته، فإنهم إذا لم يجدوا في الواقع ما يصدِّق تلك الانطباعات المتوهَّمة فإنهم يقفزون فورًا إلىٰ الشطّ الآخر، ويبالغون في خَفْضه وحَطِّه حتىٰ عن مَرْتبته الحقيقيَّة، فَبِقَدر الارتفاع الكاذب يكون الإسقاطُ الجائر، وقد أشار إلىٰ هذا المعنىٰ الدقيق أبو عبد الله ابن القيم -رحمه الله- فَذَكَرَ أن (مِنَ المدحِ ما يكون ذَمًّا وموجِبا لسقوط مرتبة الممدوح عند الناس، فإنه يُـمْدَح بما ليس فيه فتطالبه النفوس بما مُدح به، وتظنُّه عندَه، فلا تجده كذلك فتنقلب ذَمّا، ولو تُرِك بغير

---

(١) سيرتي الشعرية (٢١-٢٢).

مدحٍ لم تحصُلْ له هذه المفسدة)[١]، ولعناية الشاعر الكبير علي ابن الرومي بالخلَجات النفسيَّة واقتناصِها فإنه التقطَ هذا المعنىٰ التقاطةً بارعة فقال:

إذا ما وصفتَ امرأً لامرئٍ فلا تغلُ في وَصْفِه واقصدِ
فإنك إن تغلُ تغلُ الظنو نُ فيه إلىٰ الأمَدِ الأبعدِ
فينقُصُ مِن حيث عَظَّمْتَه لفَضل المغيب عن المشهدِ

ويروي الدكتور أحمد خالد توفيق -رحمه الله- واقِعَةً طَريفة جرتْ له ذات يوم، وهي تؤكد بجلاء أن سقف انطباعات الثناء إذا كان مرتفعًا فإنه يُحدِثُ في نفس المتلقِّي رغبةً جامحةً في إعادة الأمور إلىٰ نصابها، فيزيد علىٰ القدر الطبيعي دون قَصد، يقول الدكتور أحمد: (أذكر أني وجدت مرةً في أحد مواقع الانترنت من يمتدحني بحرارة، إلىٰ درجة أنه يعتبرني من أهم الكتاب العرب، وأنه من المفترض أن يعرفني الغرب ليضعوا كتبي مكان كتب هيمنغواي وكافكا وتولستوي .. طبعًا لم أشعر بأي سرور، لأن هذا الكلام يبعد عن الحقيقة .. ولأنني أعرف ما سيحدث بالضبط، جلست في مكتبي صامتًا وأنا أقرأ الشتائم التي تنهال علىٰ رأسي علىٰ الشبكة)[٢].

---

(١) زاد المعاد (٢: ٣٤٣).

(٢) زغازيغ (١٠٣).

وكلّ هذه الفقرة مندرجة في عمومها ضمن المعاني الجليلة لقول النبي ﷺ في صحيح مسلم عن ثابت بن الضحاك مرفوعا: (من ادَّعىٰ دعوىٰ كاذبة ليتكثَّر بها؛ لم يزده الله إلا قِلَّةً)[1].

تعطّش أبديّ:

والحقيقة المرَّة الماثِلة من طبائع الإنسان وعاداته المستقرة فيه تَكشف أنه ليس لِعَطَشه إلىٰ قوة الحضورِ وعلوّ المكانة واستمرار الوهَج في نفوس الآخرين رِيٌّ ينتهي إليه، فمهما حصَّل من المكانة المعنوية فإنه يبقىٰ إلىٰ آخر رمق في حياته يتوق إلىٰ المزيد، ويناضل من أجل البقاء، ويقاتل خمول الذكر، ويؤلمه تراجع المكانة، فهو في شقاءٍ مستمر من هذه الجهة حتىٰ يواريٰ التراب، فكم من نتاج أدبيٍّ أو فكريٍّ أو علميٍّ لو التقطتَّه وقلَّبته ودَقَّقتَ النظر فيه لما لمحتَ في طياتِهِ إلا عبارةً واحدة مكتوبة علىٰ لافتة صغيرة: (لا زلتُ موجودا!)، فهذا الروائي العربي نجيب محفوظ، وهو العربي الوحيد الذي فاز بجائزة نوبل في الأدب، وهي أشهر جائزة عالمية كما هو معلوم، ظلَّ ينتج في خريف العمر وبعد شيخوخة الموهبة وتقوّس الظهر وتهدُّل الحاجبين قِصصًا قصيرة وينشرها في بعض المجلات المحليَّة، وباحَ لبعضِ جلسائه أنه يبتغي بهذا النشر الخجول أن يستمر حضوره

---

(١) صحيح مسلم (١١٠).

الأدبي في نفوس الناس؛ ينقل أحد خواصه الأدباء هذا الحوار اللافت بينهما:

(كلما أعلنت المجلة عن قصة جديدة سألناه مستبشرين:

أهي مكتوبة حديثة..؟

يقول بحسرة: لا. «لا» ممدودة حزينة، ثم يتابع:

إنها من الرصيد، بين الحين والآخر أُرسل قصةً حتىٰ يستمر الحضور.

أتساءل: هل يشغلك الحضور يا عم نجيب؟

يتطلع ثم يقول: يعني.

أعرف أنه لا يريد أن نواصل، حفظت ردود أفعاله، غير أنني أتساءل بيني وبين نفسي:

أحقا هو مشغول بالحضور عند القراء..؟).

نعم هو مشغول بالحضور حتىٰ آخر نفَس، فمجد نوبل لا يكفي لأن يشبع الغريزة الإنسانية حينما تعتقلها الانطباعات، ولو كان لابن آدم واديان من نوبل لابتغىٰ ثالثًا، ولا يملأ فمه إلا التراب.

الحساسية المفرطة:

الحساسية المفرطة عَرَضٌ من أعراض الرضوخِ لمعتقلات الانطباعات، فالحساسية عبارة عن حالة نفسيَّةٍ متهيِّجَةٍ تحمل أصحابها حين وِصالهم مع الآخرين علىٰ بناء أهرام من التحليلات فوق أنقاض كلِّ موقف عابر، والتنقيب تحت كل عبارة شاردة، والإغراقُ في تفسير المواقف التلقائية، وهذا السلوك النفسي العنيف كثيرًا ما ينتج تفسيراتٍ وتحليلات مباينة لحقائق الواقع مباينةً تامة، فالتفكير العميق في الكلام السطحي يفسدُه، كالتفكير السطحي في الكلام العميق.

وغالبًا يكون الباعثُ علىٰ هذا السلوك غير المتزن هو فَرْطُ المحبة وتصاعد مستوىٰ الاهتمام بآراء الآخرين، فإذا تأمل الإنسان وجد أن أكثر من يتحسَّسُ منهم هم أولئك الذين يتواصل معهم وهم يتربعون علىٰ عرشِ فؤاده، ويستحوذون علىٰ منافذ تفكيره، ومن يَعنيهِ ترسيخ مكانته العالية في نفوسهم، فهؤلاء وحدهم هم القادرون علىٰ تهشيم مشاعره وتفريقها كالزجاج المنكسر بِبضع كلمات عابرة، وهذه النفسيَّة الهشَّة التي يتحكم بها الآخرون كل هذا التحكُّم مؤذية لصاحبها أذىٰ بالغًا لا سيما لحظاتِ الوِصال وأعقاب اللقاء.

بناء الفضائل من الداخل:

كتب الأديب المعروف عباس العقاد مقالا لطيفًا بعنوان: (فَلسفتي في الحياة)، وحاوَلَ خَتْمَ مقالِه بعبارةٍ جامِعة تلخِّص رؤيته للحياة، فقال: (فلسفة حياة في بضعة سطور: غِناكَ في نفسك، وقيمتك في عملك، وبواعِثُك أحرىٰ بالعناية من غاياتك، ولا تنتظر من الناس كثيرًا)[1] نعم.. لا تنتظر من الناس كثيرًا، بل -إذا أردتَّ الراحة التامَّة- لا تنتظر من الناس شيئًا تبني عليه سعادتَك، فالقلب الذي يتوكأ في نهوضه وجبر كسوره علىٰ أَعضادِ الآخرين يتعرقل في مسيره، وتتباطأ حركته كمن يمشي علىٰ عكَّازَين.

والمرء حين يعرف حقائق الناس وطبائعهم، وكونهم لا ينفعون ولا يضرون، ولا يقدمون ولا يؤخرون، ويستقر في نفسه اليقين التام بهذا المعنىٰ الشريف، ويمتلئ به امتلاء صادقًا لا يخالجه ريب، فإنه لن يحزن مطلقا لما يحدث في الخارج من التجاهلِ أو خمولِ الذِّكر أو قِلَّةِ الحفاوة أو خفوتِ التصفيق أو انطفاءِ البريق، أما حين يتطلب المشروعية من خارج ذاته، ويضع الأغلال المعنوية في عنقه، ويعتقل نفسه في معتقلات الانطباعات، ويتعلق قلبه بالمدائح المستمرة ممن حوله؛ فإن سهمَ راحته لن يكون ثابتًا في بورصة تقلبات أمزجة الناس!

---

(١) أنا، للعقاد (١٣٧).

فناء اللذة

(والله ما أعرف من عاشَ رَفِيعَ القدر، بالغًا من اللذات ما لم يبلغْ غيره، إلا العلماء المخلصين كالحَسَن وسفيان وأحمد، والعبّاد المحققين كمعروف الكرخي).

ابن الجوزي

حتىٰ لو لم يكن هناك عقابٌ أخروي، فالانهماك في اللذات الجسديَّة -خلافا لما يُتَوَهَّم بادي الرأي- هو أقصرُ طريقٍ للتَّعاسَةِ الرُّوحيَّة، وهو الحبلُ الغليظُ الملائم لخنق رقبةِ الامتياز البشري عن البهائم، وهذه الشهوات تموت في نفس الإنسان وتفنىٰ مرتين:

فهي **أَوَّلا** تَضمحلُّ نشوتُها في أوحال الاعتياد، وتتلاشىٰ لذتها في حضيضِ التّكرار، ويسري في متعتِها المتخَيَّلة دَبِيبُ الفَناء، وذلك كلما أوغَل الإنسان في تلافيفِها، وتحقَّقَ اقتدارُه علىٰ مواقَعَتِها، وهذه الحقيقة السافِرَة من المستحسن أن يدركها الشابُّ المتعففُ في أول الطريق، فربما كانت عاصِمًا له من الانزلاق في بئر الرغبات السحيق الذي لا قعرَ له، وهي حقيقةٌ عميقةٌ تغيب عن أذهانِ كثيرٍ من المتباعدين عن حضيضِ الشهوات المحرَّمَةِ إما عِفَّةً أو عجزًا، فيزين الشيطان حياةَ الإيغال في الشهوات للعفيفِ أضعافَ تزيينها للفاجر، فما عُهِدَ أن الصيَّادَ يطعم السمكة وهي في الشبكة.

ولستُ أعني هنا ما تتركه الشهوات المحرَّمة علىٰ النفوس البشرية من طمس أرجائها وإطفاء مصابيحِها وتكديرِ صفائِها فحسب، وإنما أعني أن اللذَّةَ نَفسَها تفقد مع فرطِ الانغِماس رونقَها السابق وبهجتَها الأولىٰ شيئًا فشيئا، إلىٰ أن تفسد علىٰ الغارقِ في أوحالِها حرامَها وحلالَها، فلا يَكادُ يجد فيهما لذة.



وإذا أَجَلْتَ نظرةً عَجلىٰ في أَدَبِ المجّان من الأدباء والشعراء وَجَدتَّ بين طيَّاتِه بعضَ الإشاراتِ العابرة المتناثرة التي ترسم لوحة حزينةً من عمق الشعور بالندم واستبدادِ الإحساس بالتيه وألمِ فُقْدان المعنىٰ، فعلىٰ سبيل المثال فهذا الشاعر الإنجليزي الشهير بايرون كان غارقًا في إشباع شهوات الجسد إلىٰ أذنيه، كتب في مذكِّراتِه وهو في سن الثالثة والعشرين المبكرة هذه الأحرف الحزينة: (لم يعد للحياة معنىٰ، لقد خُضْتُها حتىٰ الثُّمالَة، وجُبْتُ أقاصيها وأغوارها، ونهلتُ من ملذاتها بلا حساب، لأجد أن ليس علىٰ الأرض من هو أحقر من الإنسان، لقد سئمت الرذيلة، وجفت رغباتي، فما عاد يغريني من الحياة نبيذها ولا جنسها)[1].

وهذا الشاعر الدمشقي المعاصر الذي ملأ شعرَه بتصوير لذات الشهوات، يلخِّص بوضوح تجربته الخائبة في مداواة الأحزان النفسية بإشباع رغبات الجسد، ويبوح لقارئه أن ذلك كان مجرّد مسكِّنٍ وقتي لم يبدِّد عواصف الأزمات الروحية العميقة:

الجنــس كان مسكِّنا جربته ... لم ينهِ أحــزاني ولا أزمــاتي
والحب أصبح كله متشابها ... كتشابه الأوراق في الغاباتِ

***

(١) مشرَّدون، أندرو شافر، ترجمة منير عليمي (٣٣- ٣٤).

وهي **ثانيًا** تفنىٰ بعد مواقعتِها، ولا يبقىٰ منها بعد تلك اللحظات العابرة إلا آثارها الثقيلة، فهذا الشاعر العربي القديم أبو نُواس الذي ترك حبلَ شهواتِه ملقًىٰ علىٰ غارِبه، حين أراد أن يلخِّصَ هذه الحياة الموغلة في تتبع اللذات واستقصائها، استعرض في ذهنه شريط حياتِه ونَخَلَه فلم يبق في ذاكِرَتِه منه إلا مجرد (آثام) ثقيلة ملقاةٍ علىٰ العاتِقين، يقول النواسي معترفًا بكل أسىٰ:

ولقد نَهزت مع الغواة بدَلوهم ... وأسمت سرح اللحظ حين أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه ... فإذا عُصارة كل ذاك أثام

ويستحسن البلاغيُّون كثيرا قولَ أبي نواس هنا: (ما بلغ امرؤ بشبابه) دون تفصيل منه وبيان لتلك الأفاعيل، ففي هذا الإبهام المقصود إطلاقٌ لطائر الخيال من قفصه ليحلق بعيدا، وليقع علىٰ محتَمَلاتٍ كثيرةٍ من صورِ الانغماسِ في اللذات، ومع ذلك فلم يبقَ من تلك اللذائذ الكثيرة في ذاكرة النَّواسي إلا مجرد آثام!

تساؤل:

وربما ينبعث ها هنا تساؤل منطقي: ما دامت الشهوات المحرمة تفنىٰ لذتها في حضيض التكرار والاقتدار، وتستحيل بعد مبارحتها عبئًا ينقض الظهر، وتفسد لذة الحرام والحلال، فلماذا لا يعود أولئك الذين وصلوا آخرَ النفق المظلم بعد أن أدركوا أنه حالكُ السَّواد؟

ولماذا يزداد انغماس كثير منهم في هذا الطريق؟ ولماذا هو يتوغل باستمرار ويتطلب اللذة المفقودة في انتهاك محظورات جديدة بعد أن سَلَبَ الاعتيادُ من لذائذه السابقة ثيابَ المتعة؟

وعندي أن الجواب مُتَضَمَّن في الكلمة المأثورة المنسوبة لأبي بكر رضي الله عنه: (هذه الأجساد إما قفص الطيور أو اصطبل الدواب)، والأرواح طيور خُضر تختنق بروائح الاصطبلات، وهذا الباب -أعني باب الشهوات- إذا فُتح علىٰ مصراعيه مرةً واحدةً سَقَطَتْ عُروته علىٰ الفور، وأخذ يَصطَفق لكل نَسْمةِ هواءٍ خفيفة، وما عاد ينغلق كما كان إلا بصعوبة بالغة وعزيمة تامة وتوفيق إلهي، وما أشدَّ الوجع أن يجتمع علىٰ الإنسان: جفاف المتعة، وانحسارُ اللذة، وتمدُّدُ الرغبة، واختناق الروح ومواتها داخل أنقاض الجسد فما عادت تستطيع التحليق في الملكوت! يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في تصوير هذه الحال المؤلمة: (إن كان قادرًا أقبل علىٰ الشهوات، وأسرف في التذاذه بها، ولا يمكنه تركها، ولهذا تجد القوم من الظالمين أعظم الناس فجورًا وفسادًا وطلبًا لما يروِّحون به أنفسهم من مسموع ومنظور ومشموم ومأكول ومشروب، ومع هذا فلا تطمئن قلوبهم بشيء من ذلك)[1].

❊❊❊

(١) جامع الرسائل (٢: ٣٦٢).

ولذلك فإنَّ كلَّ من أراد أن ينعش أفراحَ روحه بذكر الله تعالىٰ والأنس به وبكلامه، كانت أول خطوةٍ في هذا المضمار هي الكفّ عن الاسترسال وراء الشهوات المحرمة، وغضّ البصر عن ما يخنق الروح بحبال المادّة الفانية، والصبرُ علىٰ ذلك الطريق، واحتساب الثواب فيه، فإذا بالروح المخنوقة تنبض وتتردد فيها الأنفاس، وتنحلُّ من عِقالِها، وتنفكُّ من قِيادِها، وتعود للحياة بهجتها وبريقها، وَمَنْ عَكَس الوِجهة وجعل اللذة الفَانية رائدَه ودليله، فإنها تعتقله أولا، ثم تفنىٰ في جوفه ثانيا، ثم تُنْشِبُ أظفارَها الطويلة في قَصَبة روحه ثالثا!

سراب الشهرة

(إن الشهرة سراب زائف، إنها مثل المستقبل الذي يركض وراءه الناس كلهم فلا يصلون إليه أبدًا، لأنهم إن وصلوا إليه صار حاضرًا، وعادوا يفتشون عن مستقبل آخر يَعْدُون إليه، كحزمة الحشيش المربوطة برأس الفرس، يسعىٰ ليدركها وهي تسعىٰ معه أبدًا).

علي الطنطاوي

حينما تقلب النظر في كتب التراجِم تَجِد أناملك تَطوي صفحاتٍ كثيرة علىٰ نسقٍ متشابه حتىٰ يمرّ بك معنىٰ دقيق بين السطور يوقف استرسالك، ويستثير اهتمامك، ويستحوذ علىٰ تفكيرك، ويأخذك نحو إجالة الفكر في مشيئة الخالق سبحانه وعجائب تصاريفه للأقدار.

ثمة شخصيات علمية كانت مقدّماتها الأولىٰ تَشِيْ بنتائج باهرة ونفعٍ عظيم .. ثم عصفت بها المشاغل أو الظروف القاهرة فانزوت بعيدًا في الظلّ، واستروحت لحياة ساكنة بَعِيدَةٍ عن الصخب، وعاشت حياةً وادِعةً في زاوية قصيّة لم تخطر ببالها يومًا ما، ثم أمست في خريف العمر بئرًا معطلة، شُهُب لمعت في الأفق في أول مشوارها ثم انطفأتْ وانطوتْ في وِدْيان الخمول، وهذا لا يختص بأهل العلوم الشرعية، بل في كل مجالٍ من مجالات الحياة، فليست كلُّ المقدمات تدلّ علىٰ النتائج بدقَّة.

ولستُ أرىٰ أن مسلكَ ربط الشهرة والذيوع وحصول شيء من النَّفع بالصدق وإخلاص النية مسلكٌ صحيحٌ، فكم مِّن صادق مُخلِصٍ عَصَمَ الله قلبه بخمول الذكر، وَحَفِظَ إيمانه بموات الشهرة، وصان مبادئه باندراجه في غبراء الناس، فعاش في سَكينة الظِّلّ ثابتًا كالطود، لم يُبدِّل تبديلا، ثم رحل إلىٰ ربِّه طاهر الأثواب، ما لاكت اسمه أفواهُ المحبين، ولا سارت خلفه أقدامُ المعجبين، وكما جاء في الحديث أن

النبي يأتي يوم القيامة ومعه الرجل والرجلان، ويأتي النبي وليس معه أحد، وليس أحدٌ أصدقَ حالًا من الأنبياء.

نعم .. قد يثيب الله بعضَ الصادقين في الدنيا في حياتهم وبعد رحيلهم بقوة الأثر وامتداد التأثير وغزارة النفع واتساع رقعة الشهرة، وكلُّ هذا رغم إبائِهم الصادق لتلك الحال، ونفورهم منها، وخوفهم من مغبَّتها، فقد تواترت الوصية عن أئمة السلف بأن يدفن الإنسان نفسه في أرضِ الخمول، حتىٰ قال سفيان لابن المبارك: (إياك والشّهرة، فما أتيت أحدًا إلا وقد نهىٰ عن الشهرة). وكان الإمام أحمد يقول: (لو وجدت السبيل لخرجت حتىٰ لا يكون لي ذِكر، أريد أن أكون في شعب بمكة حتىٰ لا أعرف، قد بليت بالشّهرة). وقال لتلميذه: (أخمِلْ ذكرك! فإني بليت بالشهرة). وكان الشافعي يقول: (وددت أن الناس تعلموا هذا العلم، ولا ينسب إلي منه شيء، فأوجر عليه ولا يحمدوني)، وكانت هذه سِّمة الصالحين من الأسلاف حتىٰ قال ابن رجب حاكيًا بعبارة جامعة عن حقيقة أحوالهم: (ما زال الصادقون من العلماء والصالحين يكرهون الشهرة، ويتباعدون عن أسبابها، ويحبون الخمول ويجتهدون علىٰ حصوله)[1].

✵✵✵

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب (٢: ٧٥٥).

فَمَنْ لزم الطريقَ وبُلِيَ بالشهرة، وجاهَدَ نفسه في إصلاح سريرته، فقد يفتح الله بصدقه القلوب، فتخترق كلماته حواجز التأثير، ولو وُضِعَ الصِّدقُ علىٰ جُرْحٍ لبرئ! كما يقول الإمام أحمد، ولكن الإشكال في الرَّبْطِ القسري لدىٰ بعض الناس بين الحالَين، فَمَن حصل له شيء من الاشتهار قلّ أو كَثُرَ، قيل: لصدقه وخلوص قصده. ومن سكن أودية الخمول مختارًا أو مضطرًّا ارتِيبَ في نِيَّتِه وصدقِه.

فهذا التفكير المادِّي هو مِن فروع الأصل الفاسد عند كثير من الناس وهو أن الدنيا دار عمل وجزاء، والحقيقة أن الدنيا للمؤمنين دار عمل وقد يحصل بها ثواب أو عقاب، والآخرة هي دار الجزاء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

فما أعده الله للمخلصين الصادقين في الجنة خير لهم من إثابتهم بالاشتهار والرواج وذيوع الاسم في دنيا عابرةٍ كأنها أضغاث أحلام. قال تعالىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

القبول العام:

وإنما الذي يصحُّ ربطه بالصدق هو ما يسمِّيه شيخ الإسلام ابن تيمية بـ«**القبول العام عند الأمة**» نحو القبول الحاصل لكبار الأئمة

وجِلَّة العلماء المصلحين، فهذه هي الشهادة العامة من عموم الأمة لهؤلاء الذين استفاض في الناس صدقهم وبذلهم وثباتهم.

أما مجرد تحليق طائر الشهرة عاليًا في لحظةٍ زمنيةٍ معينة، أو نفادِ الطبعات الأولىٰ من الكتاب، أو تضاعفِ رقمِ المتابعين للقناة، أو نحو ذلك من ألوان الرّواج النِّسبيّ، فهذه مظاهر مؤقتة تضمحلّ سريعا، وهي أحوال عارِضة تحصل للصادقين وغيرهم، وهي كثيرًا ما تكون سرابًا من السعادة يوشك علىٰ النفاد اليومي، فحال طالب الشهرة مع رغبات المتابعين يشبه حال (طالب الرئاسة والعلو في الأرض، قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان في الظاهر مقدَّمَهم والمطاعَ فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم .. فهو في الظاهر رئيس مطاع وفي الحقيقة عبد مطيع لهم)[1].

ومن توفيق الله لطالب العلم أن يصرفه إلىٰ تحقيق المحكمات، وبثّ النافع من المعارف، والتشاغل عن غرائب المسائل التي لا طائل مِن ورائها، فالعلم المحكم كثير، والجهل به واسع، والعمر قصير، وما ينفع الناس ويمكث في الأرض ليس هو هذه الغرائب التي لا تفيد سوىٰ الاشتهار ولموع الاسم المؤقت، وإنما العلم النافع -كما يقول السلف-: ما عُرِفَ، وتواطأتْ عليه الألسن.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠: ١٨٩).

وأما طالب الشهرة والباحث عن النجومية فإنه يستحضر حين يمسك القلم ملامحَ خمسة من أصحابِه المتميزين علميًّا، فيجفُّ قلمه، ويقلُّ نفعه، ولا ينشط إلا لنشر غرائب المسائل ومعضلاتها، ولو صرف نظره عن هؤلاء، وتلمَّس حاجة المئات من غيرهم؛ لنشر علمًا كثيرًا كان يتوهَّمُه بدهيًّا عندهم، ولأدرك معنىٰ بركة العلم الذي بين جنبيه!



الخمول القسري:

ومن دقائق المعاملة مع الله التفريق بين الخمول القسري والخمول الاختياري، فبعض النفوس حين تنضب مواردها، ويجفّ عطاؤها؛ تشرع بترتيل مواعظ الخمول والزهد بالشهرة، وربما تمادىٰ بها الحال حتىٰ تنهمك في ثَلْبِ المتصدرين للنفع وبث العلوم، وهو خلاف مراد السلف من طلب الخمول، بل هو من حيل النفوس البشرية في مخاتلةِ عيوبها، والتربيتِ علىٰ جوانبِ قصورها.

والنفس البشرية كثيرًا ما تَتَقَنَّع أَغراضها، وتلتوي حتىٰ علىٰ صاحِبِها، فربما طلب الإنسان الشهرةَ بضدِّها، فَسَلكَ طرائق أهلِ الخمول، ليشتهر بين الناس زهدُه في الشهرة، ومن أجل ذلك كان المعوّل عليه هو الصدق وإخلاص القصد سواء كان الإنسان مشهورًا أو مغمورًا.

الحال الأكمل:

ولذلك كلِّه أعجبني جوابُ بعض المعاصرين حين سأله أحدُهم بأنه يسعىٰ للخمول، ويتطلب تلك الحال، ويفر من الشهرة، فهل عليه شيء في ذلك؟

فذكر بأن كثيرًا ممَّن طلب الخفاء والخمول صادقًا أظهره الله، وأن الحال الأكمل أن لا يتطلب المرء الخمول والخفاء، ولا يتشوف الشهرة والظهور، وإنما يريد وجه الله سبحانه، ويصرف قلبه أصلا عن النظر لهذه الأمور، والله أعلم حيث يقدر الأصلح له، فلا يتكلف ضدَّ الحالة التي هو عليها، ويجتهد في عبادة الله حيث كان، مغمورًا أم مشهورًا. وهو جواب موجز سديد.

***

السعدي وتلميذه:

حينما كنتُ أفتش في أجوبة العلامة ابن سعدي -رحمه الله- ومراسلاته الشخصية وجدتُّ مراسلات متكررة لطالب اسمه عبدالرحمن بن محمد المقوشي، وكان هذا المقوشي مُهَذَّبا حيِّيًا في سِنِّ العِشْرين يعتذر للشيخ الخمسينيِّ من كثرة أسئلته واستشكالاته، وكان الشيخ السّعدي حينها رأسًا في العِلم والشهرة، وفي تلك الحقبة إذا قيل: قال الشيخ. فهو السعدي. خصوصا في بلدتِه وما حولَها.

تساءلت في نفسي عمَّا آل إليه حال الشاب المقوشي، وهل استكمل مشواره العلمي، أم اختفىٰ في زحام مشاغل الحياة، فبحثت عنه في كتاب (علماء نجد خلال ثمانية قرون)، لعلي أظفر بترجمة لهذا الطالب الذي كان أثيرا عند شيخِه المتفنِّن، فوجدت بغيتي في ترجمةٍ ليست طويلة ولكنها معبرة، وأكثر ما لَفَت انتباهي خمول ذكر الشيخ المقوشي مع تميزه العلمي الواضح، وإن كان في سؤالاته للسعدي خصوصًا يبرز حرصه علىٰ معرفة ترجيحات شيخه في المسائل الخلافية، ولكن يظهر تميزه ويستبين للناظر بمطالعة ترجمته، فقد كان الشيخ البسام حَفِيًّا به حفاوةً بالغة، وذكر أن المقوشي حين لقيه الفقيه عبدالله بن حميد وباحثه (زاد قدره في عينه، وأعظمه لوفرة معلوماته لا سيما في الفقه، فكتب إلىٰ الشيخ محمد بن إبراهيم يبلغه عن مدىٰ إعجابه به وسعة اطلاعه)[١]، وحكىٰ الشيخ البسام أنه حضر الشيخ السعدي والطالب المقوشي يتباحثان في الفقه والأصول (علىٰ مستوىٰ رفيع لا تصل إليه أفهام متوسِّطي الطلاب)[٢].

ومع هذا التميز العلمي الواضِح لم يشتهر الشيخ المقوشي شهرةً واسعة (ولم يكن له أصحاب يحملون عنه هذا العلم والفقه

---

(١) علماء نجد، البسام (٣: ١٩٨).

(٢) المرجع السابق (٣: ١٩٨).

الواسع)[1] كما يقول البسام، ويقول عنه أيضًا: (وأنا من أخبر الناس بحاله، فهو عالم ضليع، وفقيه كبير.. إلا أن انطواءَه وبعدَه عن الناس حرَمه من نشر علمه، وحرَم أهل العلم من الاستفادة منه)[2].

وإنما كانت الشهرة والنفع في تلاميذ الشيخ السعدي من نصيب طالب صغير جاء متأخِّرا، وجلس في حلقة تلاميذ التلاميذ، وفارَقَ السِّعديُّ الدنيا وعمرُ هذا الطالب في أواخِرِ العِشْرين! قال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

رِقَّة متناهية:

ومما لفت انتباهي لطفُ الشيخ السعدي ورِقَّة حاشِيَتِه مع تلميذه الشاب المقوشي، وعدم أَنَفَتِه من كثرةِ السؤال حقيقةً لا تصنُّعا حتىٰ بلغ به الحال أن يبوحَ لتلميذه النَّابِه أنه هو المتفضِّلُ عليه بهذه الأسئلة! وذلك لئلا يبقىٰ في خاطِرِ التلميذ شيء من الحَسَكَةِ والتردد، فلله درُّ الفقيه الرَّضِيِّ ابن سعدي ما أطيبَ نَفْسَه وأحسنَ أخلاقَه!

يقول الشيخ السعدي لتلميذه: (من عبدالرحمن الناصر السعدي إلىٰ جناب الأخ الفاضل عبدالرحمن المحمد المقوشي.. أخي كتابكم هذا وما قبله، كَرَّرْتَ فيها الاعتذار من كثرة الأسئلة..، وأنا

---

(١) المرجع السابق (٣: ١٩٩).
(٢) المرجع السابق (٣: ٢٠٠).

مسرورٌ بكثرة أسئلتكم وممنون لها لأمور: أولا ليس عندي أرغب من البحث في المسائل الدينية والتعلم والتعليم مشافهة ومكاتبة. ثانيا: تعرف أن الاشتغال بذلك أفضل الأعمال الصالحة خصوصا في هذه الأوقات التي قلَّ فيها الراغب، وكاد العلم أن يضمحلّ، وهو دعامة الدين، وأصل الأمور كلها.. فإذا كان الأمر كذلك، فلم تحرم أخاك من هذا المقصد الأسنىٰ..)، والرسالة أطولُ من هذا، وهي تَسِيل عذوبةً ولطفًا.

ومن اللطيف أني حين نظرت في تاريخ هذه الرسالة، وجدته يوم ٢٧ من رمضان عام ١٣٥٨ هـ، مع أن عامة المسائل المكتوبة فروعية فِقْهية في أبواب المعاملات والأسرة، ووجدتُ عددًا من رسائل الشيخ كتبها في هذا الشهر المبارك، ولا شك أن الاشتغال بالقرآن في هذا الشهر من أعظم الأمور، ولكن مع الاشتغال به وبتفسيره وتقديمه علىٰ غيره لا ينبغي لطالب العلم إذا انفسح وقته أن يمتنع من تحقيق بعض المسائل العلمية العارِضَة، أو مراجعة بعض المتون والمحفوظات، أو أن يضيِّق علىٰ غيره في ذلك ولو تَنظيرًا.

***

وأخيرًا .. إذا أَدهشتكَ كثرةُ عباراتِ السلف في النهي عن أسباب الشهرة، فاعلم أن من بواعث ذلك حرصهم التام علىٰ صيانة الدين من

الخضوع لقانون العرض والطلب، بينما أقدام طلَّاب الشُّهرة سَيَّارةٌ تتبع حركة الضوء، وجوَّالة لا تستقرُّ في موضِعٍ قَطّ، فهم في تحوُّلٍ مستمرٍ، وتلوّنٍ دائمٍ، ولُهاثٍ لا ينقطع إلىٰ سرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتىٰ إذا جاءه لم يجد شيئًا، وفي حديثِ المبادرة بالأعمال الإشارةُ إلىٰ أن الرجل (يبيع دينَه بَعَرَضٍ من الدنيا)، والشهرة الواسعة والجاه العريض وحبّ العلو في الأرض كلُّها داخلةٌ في هذا العَرَضِ القليل والسَّرابِ الزائل.

آثار المشاعر القلبية

الشعور وقود المسير

(السرور بالله وقربه وقرة العين به
تبعث علىٰ الازدياد من طاعته،
وتحث علىٰ الجِدِّ في السَّيرِ إليه).

ابن القيم.

كلما سمع شيئًا من أخبار الصالحين المخبتين مِن أُنْسِهِم بخالِقِهم وإطالَتِهم القيام والسجود، أو لهج ألسنتهم بالذكر والتسبيح، أو وَلَعِهِم بِكَثرة التلاوات وموالاةِ الختَمات، أو حفظهم لجوارحهم عامة الأوقات، همَّ همًّا صادقا باللحاق بذلك الركب البهي، وعزم علىٰ تصحيح المسار المتعرج، وترميم البِناء المتداعي، وتغيير أحواله السابقة التي استولىٰ عليها الانهماك في الاستجابة لرغائب الجسد الآنية العابرة.

هذه المرَّة كان الباعث قويًّا هزَّ معطفيه هزًّا، وأشعل فتيل مشاعره، ونَفَضَ ملاءة ذكرياته، فقد بلغه نبأ رحيل أحد المصلحين ممن جمع بين العلم والعمل والإخبات، وظلَّ في عيش رغيد من القرب من الله، وبقي في أنس عظيم من التقلب بين مراضيه حتىٰ قضىٰ نحبه، ومع سماع تفاصيل حياة ذلك المصلح العابد توثَّبت همته مجددا للحاق بتلك القافلة النورانية، نظر إلىٰ التاريخ في التقويم ووجد أن شهر رمضان المبارك علىٰ الأبواب، فازدادت شموع همته اشتعالا.

❋❋❋

بعد تفكيرٍ مليٍّ ناضجٍ في تحديد منطقة الانطلاق، قرر البدء من ضفاف الصلاة، حدَّث نفسه أنها العمود الذي تثبت بثباته خيمة الإيمان في القلب، وأنها إذا صلحت تَبِعَها سائر العمل.

وضعَ منبِّه ساعته قبيل الفجر بدقائق، واستيقظ لأول رنين، فما أُحيلَىٰ البدايات وألذّها! وَثَبَ إلىٰ الميضأة، وتوضأ وُضوءًا سابِغًا، ثم قَصَدَ سجادته الصغيرة المنزوية في آخر الغرفة، وحين بَسَطَها باتجاهِ القبلة ثار منها غُبارٌ مُتراكِمٌ يحكي مع ترنيمةٍ حزينة وقائع الصدود والهجران، نفض السجادة مرتين وبسطها علىٰ الأرض، ثم كبر وصلىٰ ما كتب الله له من ركعات، وابتهل في ختام صلاته بين يدي مولاه ابتهالا فيَّاضًا، شعر فيه بفيض القرب ولذة المناجاة، بعدما سلَّم سَمِعَ الأذانَ يُرْفع من المسجد المجاوِر، فَذَهَبَ ليصلّي وهو يحسّ أن السكينة تنشر أشرعتها البيضاء في فؤاده، وسار بخطىٰ نورانية كأنما كان يسمع رفيف أجنحة الملائكة، وغدا إلىٰ المسجد ماشيًا في الظُّلْمة الدامِسة، وشعر وهو يلمح من بعيد أشعة المنارة الخضراء بنسائم علويةٍ باردةٍ خَفَقَ لها قلبُه، خطر بِباله أن لو لم يمنح الله الغادين في الظُّلَمِ إلىٰ المساجد إلا هذه النسائم التي تنعش أرواحهم وتجعلها معلَّقة في برزخ بين السماء والأرض.. فقد أجزلَ لهم العطاء!

ولصلاةِ الفَجر علىٰ وجه الخصوص تأثيرٌ عجيب (في تصفية القلب وفي تنويره أكثر من تأثير سائر الصلوات.. فإن كل من له ذوق سليم وأدَّىٰ هذه الصلاة في هذا الوقت بالجماعة وجد من قلبه فُسحة ونورًا وراحة)[1]، لذا كثيرًا ما تَتهدَّج أصوات الأئمة بالخشوع في صلاة

(١) مفاتيح الغيب (٢١: ٢٤).

الفجر أكثر من سواها من الفرائض، لما يحصل فيها عادةً من مواطأةِ قلبِ المصلي لسانَه، وتشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

رغم تبكيره لمح في المسجد وجوهًا وضيئةً سبقته إلىٰ الروضة وبين السواري، وكان قد رأىٰ هذه السحنات المشرقة قبل عدَّةِ أشهرٍ في مثل هذا الوقت المبكر، وذلك حينما اعترته نحو هذه الحالة الإيمانية ثم زايَلَتْه، بعضهم حضر قبل الأذان، وبعضهم في أثنائه، غبطَهم من أعماق مشاعره علىٰ استمرارهم وثباتهم علىٰ وتيرة واحدة متنامية في علاقتهم بخالقهم، وتحسّر لانقطاعه المتكرر ولارتخاء حبل عزيمته كلما جذبه، لكنه عازم هذه المرة علىٰ الثبات والمواصلة إلىٰ آخر الطريق، وشَرَعَ بعدها بيوم في صيام بعضِ أيامِ النوافلِ، وفي أثناء الإفطار علىٰ وجه الخصوص كان يجد فرحة جامحة بالطاعة، في تلك الأيام البهيجة كان يخالجه إحساسٌ عميقٌ أنه نجىٰ من قبضة الشيطان المحكمة، وما عادت الشهوات التي كان يساكنها قبل مدة تستهوي قلبه الآن، وحينما لاحت في خيالِه تلك الخطايا بدت شائهة بلا إغراءٍ أو بريقٍ أو لذَّة، واندهش كيف كان يتقلب في أعطافها تقلب الفَراش حول الضوء قبل مدة قريبة، وفهم حينها معنىٰ عظيما طالما قرأه نظريًّا في كتب السلوك، وهو الآن يعيشه بكل تفاصيله، وهو أن (القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنىٰ شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث

لا يقدر علىٰ دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته)[١]، وأدرك أننا لا نستجيب للخطايا لأنها فاتنة فحسب، ولكنها واردات شيطانية تتسلط علىٰ القلب إذا ضعف يقينه وخبا نوره وتكاثفت ظلماته، فتعبث به وتقتاده حيث شاءت.

***

ووجدَ لهذا المسلك الإيماني الجديد لذةً غامرة وسعادةً آسرة وسكينةً مهيمنة تركت أثرها الواضح حتىٰ علىٰ أخلاقه وتعاملاته مع الآخرين، ونشرت حولَه طاقةً هلامية من النُّور، تحسّها الأنفس، ولا تراها العيون، فللطاعة نورٌ رُوحاني أَخَّاذٌ يومِض حتىٰ في ملامِح الجبين، ويشرق علىٰ هيئة بهجة قلبية خفيّة تترك علىٰ الجوارح سكونًا وطمأنينة. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا فاتهمه، فإن الرب تعالىٰ شكور. قال ابن القيِّم: يعني أنه لا بد أن يثيب العامل علىٰ عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح وقرة عين. فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول[٢].

---

(١) إغاثة اللهفان (١: ١٨).

(٢) مدارج السالكين (٢: ٦٨).

ثم ما دخل شهر رمضان الذي كان يعقد فيه العزائم إلا وقد ذهبتْ حلاوةُ البدايات، وأدركه جيش الفتور شيئا فشيئا، واستحوذ علىٰ إرادتِه تدريجيًّا، وغِيضَ ماء الأوراد والنوافل فَعَلِقَ المركب السعيد بصخور القاع، وتسرَّبت إليه كتائب هذا الجيش من منفذٍ خفي لا يخطر له ببال، لكنه يؤتىٰ منه في كل مَرَّة.

شعر وهو يتقهقر أن الهدمَ أسرعُ من البناء، وأن التَّهاوي إلىٰ سفحِ الوادي لا يتطلب سوىٰ التوقف عن الحركة نحو الأمام، تَردَّىٰ سريعا من القِمَّة إلىٰ السَّفْح حتىٰ عاد لحاله السابق وربما أربىٰ عليها، وكالعادة: حينما تَسَّاقطُ أسوار الطاعات، يجد الشيطان باب القصر موارَبا فيلجه، وعاد للشهوات السابقة في عينيهِ بريقُها اللامع وزُخرفُها الأخَّاذ، واندهشَ كيف كان يواقِعُها أول عهده بها تحت ضغطِ اللذة، ثم صار يبحث عبرها عن اللذَّة، وتأسىٰ علىٰ حاله كثيرا، خصوصا حينما أصبح بينه وبين لَذَّةِ المناجاة وحلاوةِ الابتهال حجبٌ كثيفة.

بداية التقاط الخيط:

رغم ذلك لم ييأس من شدّ الرحال إلىٰ الله تعالىٰ، وكلما أوغل مركَبُه في النأيِ عن محاريبِ الإيمان والبعد عن كُوىٰ النور، وَجَدَ أُنْسًا مؤقتا وجذوةً توشك علىٰ الاشتعال في تقليبِ تراجم الصالحين الواصلين الذين جعلوا ارتكاز تواصُلِهم الأعظم في هذه الحياة الدنيا

بالله تعالىٰ، وَضَعَ قُرْبَ فِراشِه مجلَّدا من (سير أعلام النبلاء) علّ عواصفَ القومِ تدفع زورقه الصغير العالق دَفْعًا إلىٰ شواطئ الآمال، كان يشعر بتقليب تلك الصفحات أنه يدني فتيل قلبه من بؤرة الضوء ومركز اللهب، فيجد بمطالعة أحوال الصادقين أشواقًا عارِمة وأعضاءً ساكنة تعالج القيود.

كان كلما فتش بين تلك السطور النورانية لاح له معنىٰ خفي من وراء تلك العبادات والقربات، هذا المعنىٰ بعدما انتبه له أمسىٰ أكثرَ ما يخلبُ انتباهَه ويشدُّ ناظريه ويستحوذ علىٰ قَلْبِه، فلم يعد يُدهشُه الآن مجرد عباداتهم الظاهرة مهما بلغت من الكثرة، وإنما اللافت له الآن هو السِّرُّ الذي بدأ بالتلويح والظهور، وكلما جذب الخيط المنعقد بدأت قرائنه ودلائله بالبزوغ، ألا وهو الباعث الذي كان يحرك القوم إلىٰ هذه القربات بلا انقطاع، قال لنفسه: هناك شعورٌ قلبي يأخذ بمجامعهم أخذا إلىٰ مراضي الله تعالىٰ، يوقظهم من نومهم والناس نائمون، ويحرك ألسنتهم بذكره والخلق غافلون، وينشر في نفوسهم في أزمنة الهرج الطمأنينة والورىٰ قلقون، ويجعلهم يستمرون علىٰ ما يشبه الوتيرة الواحدة المتصلة بينما غيرهم يَثِبُ وثبتين أو ثلاث ثم ينقطع بقُرب، أو يعقد العزائم الكبار ثم تنفسخ سريعًا كأن لم تكن!

هناك اتصال قلبي لا نراه بالعين المجرَّدة إلا في صورة عبادات ظاهرية، إنهم محبُّون والهون يعيشون لذاتٍ متصلة بلا أكدار، ومشتاقون قد جمعوا بين حرارة الشوق ولذة الوصل، ومتلهفون ما إن ينتهي وصالٌ بمحبوبهم حتىٰ يشتاقوا إلىٰ وصال آخر، لا يحول بينهم وبين المحبوب بابٌ ولا حجاب، ما بين ذكر وصلاة ودعاء وصيام وامتثال، وكل ذلك بأنسٍ وطمأنينة ولهفة ولذّة، فشتان بين من يحمل جوارحه حملا علىٰ طاعة المحبوب، وبين من لا يجد أُنْسَ قَلْبِهِ إلا بهذا المحبوب! فالأمر كما قال ابن القيم -رحمه الله-: (القلب إنما يسير إلىٰ الله بقوته فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعا يبعد تداركه)[1].

لذّة الظفر:

في غمرة البحث عن بصيص النور لاحت له آية من كتاب الله، وحديث مشهور عن النبي ﷺ، كانا بالنسبة له بمثابة خارطة طريق دقيقة لمن فَقَدَ البوصلة، وكلاهما كان يحفظهما من أيام الصِّبا عن ظهر قلب، وما لَفَتا انتباهه إلا الساعة، وذلك لأن القارئ الشَّجي بشكوىٰ تؤرِّقُه يمسي قلبُه شديدَ الاستشعار كالمغناطيس الجاذب لكل ما يتصل بأزمته الرُّوحيَّة، بخلاف القارئ الخليّ الفارغ القلب فإنه يمر بمناجمِ الذهب مرور الكرام.

---

(١) الداء والدواء (٧٣).

أما الآية فهي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]. طالما مرّ هنا علىٰ لَفْظَة الخاشعين دون أن يُنْعِم النَّظر في معناها العميق، وهي الآن تختلج في فؤاده اختلاجًا، يقول تعالىٰ بأن الصَّلاة شاقَّةٌ إلا علىٰ قومٍ من الموفَّقَين، وهؤلاء الذين سهلت عليهم الصلاة لديهم قوىٰ خاصة، ولكنها ليست امتيازات جسدية ولا مواصفات جِسمانية، وإنما هم يختصون عن سائر المصلين بحياة قلبية حاضرة حال الصلة بالله، وهؤلاء تحديدًا هم الذين يسهل عليهم أداء الصلاة مهما وَهَنَتْ أجسادهم وتقوَّست ظهورهم وبلغوا من الكبر عِتيا، وما يزال بهم الخشوع والحضور القلبي والافتقار الصادق حتىٰ تكون قرةَ عينهم وغايةَ أنسهم ومنتهىٰ فَزَعِهم إذا حزبتهم الأمور.

***

حينها ألقىٰ نظرةً فاحصةً علىٰ حاله السابقة، ورأىٰ علاقتَه بِرَبِّه في أحسن أحوالِها فقيرةَ الشعور، مقصوصةَ الرِّيش، مَهِيضَةَ الجناح، مفعمةً بالحركات الظاهرية والأوراد اللِّسانية التي يؤجر عليها بإذن الله، ولكن لم يواكبها عمل قلبي يكافئ كثرتها، وينشر في أرجاء نفسه حلاوتها، فلذا كان يفتر سريعًا ولا يدرك ساعتها أين منفذ الخلل.

هو لا يشكُّ طرفةَ عين في محبة قلبه لربه تعالىٰ، تلك المحبة التي تُبقِي له اسمَ الإيمان، وتُشْعِل في قلبِهِ أشواقَ التَّعبد والتقرب، ومن ظلالِها كان يتذوق اللذاتِ العابرة للمناجاة والطاعات، ومن فيض أنوارها كان يجد حلاوة الصيام، ولو واجهه أحدٌ من الناس بهذا السؤال المباشر: هل تشعر أنك تحب الله عز وجل؟ لما وجد للسؤال معنىٰ، ولَقَابلَ السائلَ بالصدود والإعراض، ولكن حين تكون حركةُ قَلْبِ العاملِ أبطأ من حركة جوارحه سيجرفه طوفان الكلل، ويكون كمن يجدِّف بيد واحدة، يدور حول نفسه، ثم يدركه الملال وينقطع، أما إذا تحركت أشواق الروح وعصفت الرياح بها بين الجوانح، وفاض الفؤاد بالمحبة الفيَّاضة، فإن الجوارح لا تَكَلْ!

❋❋❋

وأما الحديث فكان دعاءً نبويًا مأثورا، فقد جاء في السنن أن عمار بن ياسر صلىٰ صلاة فأوجز فيها، فقال له بعض القوم: لقد خففت أو أوجزت الصلاة! فقال: أما علىٰ ذلك فقد دعوتُ فيها بدعوات سمعتهنَّ من رسول الله ﷺ، والدعوات التي دعا بها عمار هي الدعوات المشهورة: اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك علىٰ الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنىٰ، وأسألك نعيما

لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين.

وهذه الدعوات عليها أنوار النبوة تومض في كل جَنَباتِها، فإنها جمعت -كما يقول ابن القيم- (أطيبَ ما في الدنيا، وأطيبَ ما في الآخرة)[1]، ولكن الذي لَفَتَ انتباهه الآن في هذه الدعوات أن النبي ﷺ يسأل ربه منزلة الشوق! كلُّ الأحباب في الدنيا يتمنون منازل الوصال مع المحبوبين، ويتحاشون بواعث نار الأشواق، لما في الشوق من آلام مبرِّحَة وأوجاع مؤلمة، فهذا هو شأن المحبوبات الدنيوية، أما خليل الرحمن فيسأل ربه في هذا الحديث منزلة الشوق إلىٰ المحبوب!

ففي هذا السؤال النبوي معانٍ كثيرة تظهر بطول التأمل لا يعلم مداها إلا الله وحده، فالشوق الصادق إلىٰ لقاء الرحمن، وما يتضمنه من استحضار الأعمال القلبية الأخرىٰ كالمحبة واستحضار المراقبة إذا سكن قلب المؤمن أدخله جنةً دون الجنة، لأن المشتاق للقاء ربه يجد من فيض القرب بالشعور، وحلاوة الأنس بالمناجاة، ولذة الروح بتلاوة كلامه ما يجعله يوقن أنه ليس شوقًا مجرَّدًا، وإنما هو شوق لا ينفك عن الصِّلة بالمحبوب سبحانه.

---

(١) إغاثة اللهفان (١:٢٩).

انسدال السِّتار:

وبهذا ينكشف لك حجاب بعض الكلمات في توصيف أحوال القوم، فأعظم الأمة بعد نبيِّها ﷺ إنما كان سَبْقُه بالذي وَقَرَ في قلبه! وذو النورين كان يُكْثِر الصلاة ويطيل قراءة القرآن، حتىٰ روي أنه يختم القرآن في ركعة! وكان يقول -رغم ذلك-: لو أنَّ قلوبَنا طهرت ما شبعت من كلام الله عز وجل! وقد قتله أهل الشِّقاق وهو محتضن حبيبَه الذي لم يشبع منه، حتىٰ سال الدم علىٰ أديم المصحف، فيا لها من علاقة قلبية صادقة بعيدةٍ عن هالات التصنّع الكاذبة! فلذلك حين قرأ ابنُ عمر قولَه تعالىٰ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر:٩]. قال: ذاك عثمان بن عفان.

ولاحظ أن القرآن في غاية البيان والوصف لحال هذا القائم القانت، فلم يقتصر علىٰ ذكر أحواله الظاهرية، وإنما وصفه بحضور شعور الحذر والرجاء، وهما جناحا العابد، ومن تأمل آيات القرآن وجد ارتباطًا وثيقًا بين ذكر الأحوال القلبية والعبادات البدنية.

***

فأحيانا يجد العبد في نفسه انشراحًا للعبادة وحماسةً صادقة للطاعة، ويتعجب في أثناء تلك الحال الراقية كيف كانت بعض

المعاصي والذنوب تستطيع أن تتخطف روحه وتتكالب علىٰ نفسه، ثم لا تلبث إلا وتنقلب عليه تلك الحال، وتنفصم العرىٰ، وتنحل المواثيق، فيمسي البناء الشامخ خرابًا!

فلا بد أن يعتصم العبد بحبل وثيقٍ من الابتهال والتفويض والتوكل علىٰ مولاه في كل أحواله، وهو مفتقرٌ لاستحضار معاني التفويض في حال صلاح أحواله كحاجته إليها في حال فساد الأحوال! فما أكثر الفساد الذي يفتشه العبد فيجد أن وراءه وهمًا كاذبًا بالاستغناء المؤقت عن إعانة مولاه!

خلاصة مركزية:

والخلاصة هي أن الشعور القلبي هو وقود المسير في هذا الطريق، وهو الذي يجعل ألوان الطاعات وصنوف القربات سهلةً علىٰ أولئك الموفقين السائرين علىٰ ما يشبه الوتيرة الواحدة المتنامية، فإن الأعمال القلبية تتبعها في مراداتها الأجسام، فتطوي الآلام، وتقرِّبُ البعيد، وتعيد حساب المسافات بغير قوانين الفيزياء!

فسبحان من جعل السير إليه يُقْطَع بحسب أشواق القلوب وأعمالها، لا بسرعة الأقدام ولا بقوىٰ الأجساد! ومن استرابَ فلينظرْ في أحوالِ أهلِ المناجاة والذكر والتلاوة من الماشين في الظُّلَم إلىٰ المساجد!

حلاوة الإيمان

(القلب إذا ذاقَ طعمَ عبادةِ الله والإخلاص له؛ لم يكن عنده شيء قطّ أحلىٰ من ذلك ولا ألذَّ ولا أطيبَ).

ابن تيمية

جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**. وهذا الحديث الجليل البليغ (أصل من أصول الدين، ومعنىٰ حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق في الدين، وإيثار ذلك علىٰ أعراض الدنيا)[1]. وفي ضوء كلّ جملةٍ من هذا الحديث يمكن أن تفرد مصنفات، فتحت هذه الألفاظ اليسيرة ما لا يمكن الوفاء به من المعاني في هذا المقام، ولكني أشير في هذا الفصل إلىٰ أصولِ تلك المعاني:

قوله ﷺ: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان):

فيه بيان أن للإيمان حلاوة، وهذه استعارة بلاغية، وذلك لأن الحلاوة إنما تكون في المطعومات، والإيمان ليس مطعومًا، فقد شبه النبي ﷺ الإيمان بنحو العسل، ووجه الشبه بينهما هو الالتذاذ وميل القلب إليه، والحلاوة هي أظهر اللذات الحسية وأدناها استحضارًا للذهن فلذلك عبَّر بها، وإن كان لا مقارنة بين حلاوة الإيمان، وحلاوة العسل ونحوها، فـ(ليس في الدنيا من اللذات أعظم من لذة العلم بالله

---

(١) المنهاج، النووي (٢: ١٣).

وذكره وعبادته، ولهذا كان النبي ﷺ يقول: حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة. لم يقل حبب إلي ثلاث فإن المحبب إليه من الدنيا اثنان وجعلت قرة عينه في الصلاة فهي أعظم من ذينك ولم يجعلها من الدنيا)[1].

وفي هذه العبارة النبوية: **(وجد بهنَّ)** إشارة خفيّة إلىٰ اختلاف حال المريض وحال الصحيح من جهة التلذذ بالطُّعُوم والشعور بالمذاق، فمن المعلوم أن المريض ينعقد لسانه وتلتبس عليه حقائق المطعومات، فربما وجد طعم العسل مُرًّا علقمًا، وأما الصحيحُ فإنه يذوقُ الحلاوة والمرارة علىٰ ما هي عليه، وكلما نقصت الصحة وتقلصت شيئًا ما؛ نقص تَلَذُّذُهُ وتمييزه للحلاوةِ بقدر ذلك، كما يقول الشاعر:

ومن يك ذا فَمٍ مرٍّ مريضٍ يجد مُرًّا به الماء الزلالا!

فكأن هذه الخصال الثلاث المذكورات في هذا الحديث هي القنطرة لارتشاف حلاوة الإيمان، وهي الفارق بين حال الصحيح الذي يجد طعم حلاوة الإيمان القلبية، ويسكن إليها قلبه، وتتبعها فيه جوارحه، وحال المريض الذي ربما كان يجد سكينة قلبه المؤقتة في ضد ذلك من مقارفة الخطايا وملابسة ألوان الفسق والعصيان.

---

(١) الصفدية، ابن تيمية (٢: ٢٧٢).

قوله ﷺ: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)، فأما محبة الله تعالىٰ فهي أساس الدين وركن الإيمان ومدار الكتب السماوية، ولا يتم للعبد إيمانٌ حتىٰ يستقر في قلبه أصلُ تلك المحبَّة، وكمالها الذي يحصل به حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحبَّ للعبد مما سواهما من الأضداد.

دعاوى المحبة:

محبة الله تعالىٰ تقتضي تقديمَ مرادِه سبحانه وتعالىٰ عند تزاحم المرادات، واستشعارَ قربِه، والأُنْسَ بكلامه، والفرح بذكره، والبهجة بمناجاته، وهذه المحبة تتعرض لامتحان يومي مستمرّ حتىٰ يفارق العبد الدنيا، ففي كل يوم يمرّ علىٰ العبد ما يكشف له حقيقة المحبة وصدق الدعوىٰ!

فمن لا يحول بينه وبين مواقعة الخطايا إلا غفلة الناس لم يحقق تلك المحبة، ومن كان الله تعالىٰ أهونَ الناظرين إليه قد أخفق إخفاقًا ذريعًا في امتحان المحبة، ومن كان يطيل هجر كلام ربه ويمرّ عليه الهلال ثم الهلال ولم يختم ما بين دفتي المصحف فإن بينه وبين تخوم تلك المحبة مسافات ومفاوز.

فمحبة الله تعالىٰ إذا استقرت في قلب العبد فإنها تورث الأنس به وطلب قربه ومحبة كلامه والرغبة في فهم معانيه والعزيمة الصادقة

علىٰ العمل بمقتضاه، وإيثاره علىٰ كلامِ غيره، وتوجب معرفة أسمائِه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، كما في الحديث الصحيح في ذلك المحب الذي كان يصلي بأصحابه فيقرأ سورة الإخلاص، فأخبروا بذلك النبي ﷺ، فقال: سلوه لم يفعل ذلك؟ فقال: لأني أحبها. فقال: إن حبك إياها أدخلك الجنة[1].

استشعار القرب الإلهي:

ومن أحب الله حقًّا استأنس بالخلوة به، وتعرض لنفحات رحمته، وتلمَّس لحظات قربه من العبد، ووجد فيها سعادة غامرة لا تعدلها مباهج الدُّنيا، ومن ذلك الفرح بهيئة السجود له سبحانه لقُربِه من العبد في تلك الحال الشريفة، ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[2].

فمن خصائص المحب الصادق استشعار معنىٰ القرب الإلهي، فالله تعالىٰ من أسمائه: القريب. واستشعار القرب يقتضي سرعة الفيئة وعظيم الأنس ولذة الابتهال وكثرة المناجاة وترقُّب الإجابة.

واستشعار القرب الإلهي يقتضي أن تكون للعبد حين يُلِمُّ بخطيئة علاقة خاصة بربِّه، استشعارًا كاملا لحضوره معه في حركاته وسكناته،

---

(١) أخرجه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم (٧٧٤)، ووصله الترمذي (٢٩٠١).
(٢) صحيح مسلم (٤٨٢).

وإيمانًا تامًّا بكونه لا يعزب عنه مثقالُ ذرَّة، ولا تندُّ عنه خطرة، ولا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فيسرع إلىٰ الاستغفار، ويبادر بالتوبة، وهذه سِمَة العَبدِ الأوَّاب قال تعالىٰ: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء:٢٥]. قال مجاهد: الأواب الذي يذكر ذنوبه في الخلاء، فيستغفر الله منها.

شهوة العلو في الأرض:

ومن كان قصده طلبَ العلو في الأرض -حتىٰ ولو كان يطلبه بنصرةِ الحق- لم يتخطَّ من امتحان المحبة الصادقة قِيدَ أنملة، وستظهر دعواه الكاذبة لنفسه ولغيره، فربما طلب الإنسان الحقَّ وألحَّ في طلبه، بل ربما التجأ إلىٰ الله في جوف الليل الآخر داعيًا وراجيًا وقوعه، لكنه يفعل كل ذلك لا لينتصر سلطان الحق علىٰ الخلق، ولكن لينتصر هو بالحق ويعلو به علىٰ الخلق، فمثل هذا لم يحقق المحبة التامة لربِّه ولظهورِ دينه وعلوّ كلمته، فمراده أن تكون كلمته هي العليا وليست كلمة الله!

وآية ذلك أن تراه (ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمُه وإن كانت باطلًا، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمُّه وإن كانت حقًّا، والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه)[1].. ولذلك لا يفرح أمثال هذا بالحق مطلقًا، ولا ينقاد إليه إذا أتىٰ علىٰ خلاف ما يشتهي.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية (١٠: ٥٩٩).

الحقّ المفصَّل:

وهذا معنىٰ دقيق ينبغي أن يتفطن له المؤمن حتىٰ يتجرَّد من هذه الرواسب الخفيّة في أثناء طلبه للحق، فلا يطلب حقًّا مفصَّلا علىٰ ذائقته وملائمًا لمصلحته، وحتىٰ لا يكون حاله مع الحق كحال أهل الكتاب الذين كانوا ﴿مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة:٨٩]. ومعنىٰ يستفتحون: يستنصرون. فقد كان اليهود يستغيثون ويقولون: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان، فلم يكونوا يطلبون مطلق الحق، وإنما يطلبون حقًّا مقيَّدًا، وهو الحق الذي يقمعون به مخالفيهم، ويحصل لهم به السودَد والرئاسة، وبهذه الدخيلة الفاسدة انكشفت دعواهم الكاذبة عند أول امتحان فكانوا أولَ كافر بالحق حين عاينوه، قال تعالىٰ واصفًا حالهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩].

محبة مدخولة:

ومن كان يتخلىٰ عن شيءٍ من الحق كلما لاحت له شبهة عارضة، أو كان يشترط لإيمانه وتسليمه لمولاه أن تكون الأدلة الشرعية في كل فرعٍ من فروع الشريعة علىٰ درجة واحدة من الجلاء والبيان والقهر التام وإلا لم يذعن فهذا كاذب في دعوىٰ المحبة، لأن المحب الصادق تكفيه من مولاه الإشارة الظاهرة، ولا تثنيه عن مراده الشبهات الواردة

ما دام استبان له الحق، فـ(ليس المقصود من الدين إرغام الناس علىٰ الحق، إنما مقصوده ابتلاء ما في نفوسهم من الحبّ للحق أو الحبّ للباطل، وأنت ترىٰ دلالات القرآن كثير منها ليست بقاهرة، ومِنَ الحكمة في ذلك: الابتلاء، فالمحبّ للحق تكفيه الدلالة الظاهرة، والمحبّ للباطل يتأوَّل ويتعلّل .. وليس المقصود هنا أنه لا يُشْتَرط في الإيمان الإيقان، وإنما المقصود أنه يكفي في قيام الحجّة الظهور البيِّن، فمَن قَبِل فقد فاز في الابتلاء)[1].

امتحانات مستمرَّة:

وفي الجملة فإن محبَّة العبد لربِّه تعالىٰ في امتحان دائمٍ لا ينقطع حتىٰ يلاقيه، والامتحان لا يأخذ شكلا واحدًا، وإنما له صورٌ شتَّىٰ تختلف باختلاف الأحوال: أداء الفرائض مع غلبة النعاس، التعفف عن النظر إلىٰ الحرام مع كونه علىٰ طَرَفِ الثُّمام، كظم الغيظ حينما تلوح منافذ رحبةٌ للانتقام، حفظ اللسان عن نهش الأعراض، الرجوع للحق إذا استبان ولو نطق به أبغضُ الناس .. فليس بالضرورة أن يكون الامتحان علىٰ هيئة زليخا وهي تُغَلِّق أبواب القصر، وتقول ليوسف -عليه السلام-: هيت لك! أو أن يكون علىٰ صورة نهر طالوت لما فصل بالجنود وقال: إن الله مبتليكم بنهر..!

---

(١) آثار المعلمي (١٢: ٤٥٢).

دلائل محبة النبي ﷺ:

من أظهر علامات المحبَّة الصادقة التي ذكرها النبي ﷺ تمنِّي رؤيته بذهابِ المال والولد، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **مِنْ أشدِّ أمتي لي حُبًّا ناسٌ يكونون بعدي يودُّ أحدهم لو رآني بأهله وماله**[1]. ومن دلائل محبته ﷺ طاعته فيما أمر، ولزوم سنته، والذبّ عنها، والدعوة إليها، وكثرة الصلاة والسلام عليه، مع الحذر من الوقوع فيما نهىٰ عنه من الغلو فيه والزيادة بالأقوال والأفعال، فهذا الحذر من تمامِ المحبَّة الصادقة.

موارد المحبة:

ومن أراد أن يزداد محبةً للنبي ﷺ فعليه أوَّلا أن ينعم النظر في سيرته العذبة، فالمحبَّة الصادقة مشاعر قلبية فياضة تنبع بزيادة المعرفة، ومن عرَفه حقيقة المعرفة أحبَّه لا محالة!

ثم عليه **ثانيًا** أن يستحضر فضلَه علينا بتبليغ الشريعة وتمامِ النصحِ وعظيمِ الشفقة، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]. مما أوجب فداءه بالمال والولد، فِمن هذين الموردين تزهر حدائق المحبة النبوية الصادِقة.

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٣٢).

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ كان آخذًا بيدِ عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله! لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: **لا والذي نفسي بيده حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**. فقال له عمر: فإنه الآن -والله- لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: **الآن يا عمر**. فعُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ترقَّىٰ من مرتبةٍ في المحبَّة إلىٰ أخرىٰ في لحظاتٍ يسيرة، وأقرَّه النبي ﷺ علىٰ ذلك، فالمحبة إنما تنشأ من التحديق في بواعِثِها.

قوله ﷺ: (أن يحب المرء لا يحبه إلا لله):

وهذه الخصلة من أعظم الخصال الدالة علىٰ تحقق محبة الله تعالىٰ في نفس العبد، فمن المعلوم أن من أحبَّ أحدًا فإنه يحب أحبابه وأولياءه، ويبغض خصومه وأعداءه، هذا معنىٰ فِطْري مستقر في النفوس البشرية، ولذلك عبَّر عنه العلماء والشعراء بعبارات مختلفة، ومن ذلك ما صاغه شيخ الإسلام ابن تيمية بعبارة دقيقة: (محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب)[1]، وقال أبو الطيب راثيًا حبيبَ حبيبه:

وإني وإن كان الدَّفينُ حبيبَه حبيب إلىٰ قلبي حبيب حبيبي!

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠: ١٩١).

والمحبة في الله لها امتحانات أيضًا تدلُّ علىٰ حقيقتها، وتكشف عن مدىٰ وجودها.

فكثيرًا ما تكون العلائق الإنسانية مبنيَّةً علىٰ المصالح المتبادلة والمنافع المؤقتة، فإذا انقطعت المنفعة جفت ينابيع المحبة، فهذه ليست مودَّةً في الله، ومن كان حبه وبغضه بحسب ما يصله من المنافع والمضارّ فهذا محبّ لنفسه، متبتِّلٌ في محرابِها، عاكف في سبيل مرضاتها، ولو توهَّم أنها محبةٌ في الله، (وعلىٰ هذا تجري عامة محبة الخلق بعضهم مع بعض، وهذا لا يثابون عليه في الآخرة، ولا ينفعهم .. وأما من يرجو النفع والنصر من شخص ثم يزعم أنه يحبه لله؛ فهذا من دسائس النفوس ونفاق الأقوال)[1]، فالحبُّ في الله يقتضي موالاة العبد المحبوب لما نتوسَّم فيه من القرب من الله المعبود، ولذلك كانت محبة النبي ﷺ من أعظم دلائل الإيمان، لما نعلمه من اصطفاءِ الله له علىٰ سائر الخلائق، وكذلك محبة الملائكة والرسل والأنبياء والصالحين ولو لم تربطنا بهم أدنىٰ وَشِيجَة، فهذا هو مقتضىٰ محبة الله تعالىٰ.

يروىٰ أن من دعاء عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحج: اللهم اجعلني أحبك، وأحب ملائكتك، وأنبياءك، وعبادك الصالحين، اللهم حببني إليك، وإلىٰ ملائكتك، وأنبيائك، وعبادك الصالحين.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠: ٦١٠).

أثر النصيحة الصادقة:

ومن أعظم امتحانات المحبة في الله وجود النصيحة الصادقة بين الأحباب، والنصيحة من أعظم ما يديم العلائق في الدنيا والآخرة، فإذا أردت أن تحافظ علىٰ مودَّة أحد من الناس زمنًا طويلا فلا تعنه علىٰ باطل، ولا تجامله في تقصيره بحق مولاه، فإنك إن فعلت ذلك ربما عوقبت لاحقًا بانطماس محبتك من قلبه، قال ابن تيمية: (والناس إذا تعاونوا علىٰ الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضًا وإن كانوا فعلوه بتراضيهم)[1]، وهذه الحال تحصل كثيرًا بين الأزواج، يجامل بعضهم بعضًا استبقاءً للمودّة، ومحاذرةً من النفور، وتحاشيًا للكراهية، ثم يعاقبون بنقيض مقصودهم، فلا تلبث ثياب المودّة إلا أن تنحسر شيئًا فشيئًا، فما لم يكن لله لا يدوم، وكما قال تعالىٰ عن أهل الكتاب: ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة:١٤].

قوله ﷺ: (أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف النار): فهذه من مقتضيات محبة الله تعالىٰ، فمن أحب الله تعالىٰ حق المحبة وخالطت قلبه بشاشةُ الإيمان به؛ أبغض الكفر والفسوق والعصيان، ولذلك يقول يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣]. فآثر العقوبة الغامِرَة، واستحبها علىٰ اللذَّة الحاضِرَة.

---

(١) المرجع السابق (١٥: ١٢٨).

ومَن كان إيمانه بالله عزيزًا عليه فإنه يحتاط له غاية الاحتياط، ويخشىٰ علىٰ نفسه من فواته وفَقْدِه حتىٰ آخر نَفَس يتردد له في هذه الدُّنيا، فهذا إمام الموحدين الخليل عليه السلام يخشىٰ أن يُسلب نعمةَ التوحيد، فيقول في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم:٣٥]. وهذا سيد ولد آدم ﷺ يقول خادِمه أنس حاكيًا حاله: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: يا مقلب القلوب ثَبِّتْ قلبي علىٰ دينك. فقلت: يا رسول الله! آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبهما كما يشاء[1].

وقال عبدالرحمن بن مهدي: كان سفيان الثوري يبكي ويقول: أخاف أن أُسْلَبَ الإيمان قبل أن أموت. فإذا كان هذا صنيع الأكابر في استشعارهم نعمة الإيمان وخوفهم من فَقدها؛ فما بال أحدنا يغدو إلىٰ مواضع الفتن وموارد الهلاك ومواطن الشبهات ويرخي لها سمعه وناظريه بطمأنينة تامَّة كأنما بايع تحت الشجرة أو بُشِّر بالجنة!

محاذرة أسبابِ الانتكاسة:

ومن هانت عليه نعمة الإيمان لم يذق حلاوته، فإذا فقد هذه الحلاوة لم يبالِ بأسباب نقصِه وزواله، وأما المؤمن فإنك تجده

---

(١) سنن الترمذي (٢١٤٠).

شديد الاحتراس من الكفر وما يقرِّب إليه من الفسوق والعصيان، وتراه كثير الابتهال بدوام الثبات والاستقامة محاذرًا أسباب الانتكاسة والانحراف.

فمن أسباب الانتكاسة الاستهانة بذنوب الخلوات، وكسر حاجز المحرمات، ومراكمة الخطايا مع ضعف الاستغفار، فكثير مما يوصف بأنه انتكاسة مفاجئة، لا يعدو أن يكون استجابة متأخرة من الطلاء الخارجي للخواء الداخلي!

ومن أسباب الانتكاسة وسلب الإيمان المغالاةُ في العلم وتفخيم شأن المعارف لا سيما المعارف النظرية التي تمنح أصحابها انتشاءً وبريقًا وتمييزًا عن العامَّة وأوساطِ طلبة العلم مع تفريطٍ ظاهرٍ في العمل، أو المغالاة في العمل والانهماك في التعبد مع زهدٍ في العلم وطلبه، وأما من يوفَّق لطلب ما ينفعه من العلم مع الحرص علىٰ العمل به، فهذا -بإذن الله- في حرزٍ من أحرازِ الثبات، ولذلك يقول ابن تيمية: (أكثر ما نجد الردة فيمن عنده قرآن بلا علم وإيمان، أو من عنده إيمان بلا علم وقرآن، فأما من أوتي القرآن والإيمان فحصل فيه العلم فهذا لا يرفع من صدره)[1].

***

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٨: ٣٠٥).

والحقيقة الماثِلة أن حديث حلاوة الإيمان هذا إذا سمعه المؤمن تاقت نفسه وخفق فؤاده حتىٰ يحصِّل هذه الثمرة العظيمة المذكورة، والناس درجات متفاوتة في فقهه والعمل بموجبه وفي نصيبهم من الشعور بالحلاوة، فأما الصالحون الموفَّقون العاملون بخصالِهِ فيحكون عجائبَ هائلة من هذه الحلاوة التي ذكرها النبي ﷺ، فقد قال أحدهم واصفًا ما يجده في قلبه: (إنه ليمرُّ بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب)، وقال آخر: (إنه ليمرُّ بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا)، وقال آخر: (مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلىٰ لقائه)[1]. وأما أمثالنا من المساكين فلم نَشَمَّ لأمثال هؤلاء الموفقين رائحةً، وليس لنا حظٌّ سوىٰ حكاية أحوال القوم، وسؤالِ الكريم العظيم من واسع فضله.

فإذا منَّ الله عليك في مواسم الطاعات فاستشعرتَ بَرَدَ المناجاة، وذقتَ لذَّة تجافي المضاجع، واستروحت لطولِ السجود، وأنستَ بالخلوة بِرَبّك، ووجدت سكينةً عجيبة تتطامن علىٰ روحك، فتذكّر أن ثمةَ مَن يذوق هذه اللذائذ طيلة العام .. أولئك محلُّ الشرف وموضِعُ الغِبطة!

---

(١) إغاثة اللهفان (١: ٧٢).

كرامة قلب

لو فَكَّرَ العاشقُ في منتهىٰ

حسن الذي يسبيه لم يَسْبِهِ!

المتنبي

الحب الوافد علىٰ القلب هو كالنار الصغيرة التي اشتعلت في الموقد، وحطبُها التواصل وتتبع الأخبار وتقليب الذكريات والركون للأفكار الخيالية والأماني البعيدة والأهواء الحالمة!

فمن رام التعافي السريع منه فليقطع عنه هذا «المدد» من الحطب، وليسأل الله بإلحاح صادق واستغاثة خاشعة أن يهوّن عليه الألم «الوقتي» الذي سيشتعل في جوفه حالَما تنطفئ هذه النار التي اشتعلت بلا قصد، وحينما تمسي هذا النار رمادًا فسينفخها بكلتا شفتيه وهو يتعجَّب ممَّا كان منه آنفا!

الحب لأيِّ شيء كان هو بمثابة كائن حي يكبر ويقوىٰ ويتنفس ويهرم ويموت .. وذلك بحسب ما نقدمه لجسده من «غذاء»، ولمعدته من «طعام»، ولأعراضه من «دواء»، فلتقطع عنه إن رمتَ «الراحة» كلَّ «مدد»، فإنك إن فعلتَ ذلك رحل بهدوء، واختفىٰ عن ناظريك!

وبما أن «الحب» كائن حيّ، فلوفاة الحيِّ سكرات، وآلام مبرِّحة، تشبه انتزاع عضوٍ زائد، لا تزال الحياة تنبض في لحمه، والدماء تجري في شريانه، وهذه هي آلام المواجهة القوية والبتر السريع .. وهي وإن كانت قاسية أحيانًا -لا سيما في البدايات- لهي أهون علىٰ العاشق من بقاء الحب حَيًّا متوثبًا شامخًا مزمجرًا مسيطرًا علىٰ الروح مالكًا للتصرفات، ففي حياة هذا الحب موت العاشق، وفي موته حياته!

وكلما بادر بهذا العلاج كان أسهل عليه غالبًا، لذلك حتىٰ الذين يذكرون أن العشق ليس اختياريًّا لا ينفون أن ثمة مرحلة اختيار وقبول وتحرر للإرادة يذكرها العاشق جيِّدًا لكنه كان في أثنائها يموِّلُ قلبه بما سيسلبه الإرادة وحرية التصرف، بعدها وجد نفسه في مرحلة توافد المتاعب الكبار، وشعر فيها أنه أمسىٰ مسيَّرًا لا مخيَّرا!

قال العباس بن الأحنف مصوِّرًا هاتين المرحلتين:

الحب أول ما يكون لجاجة　　تأتي به وتسوقه الأقدار
حتىٰ إذا اقتحم الفتىٰ لجج الهوىٰ　　جاءت أمور لا تطاق كبارُ!

ولو مكث العاشق علىٰ هذه الحال بلا تواصل أمدًا طويلا، قاطعًا حبال أمل الوصال، مراقبًا مولاه الرحمن، مستحضرًا أن ليس ثمة تخريج شرعي لهذه العلاقة، متذكرًا أن نهايتها مجهولة المآل! وتسلَّحَ بسلاح اليأس لسكن كثيرا، وتحاشىٰ كثيرًا من بواعث الآلام في الدارَين!

نعم.. إن كان ثمة تخريج شرعي للعلاقة بأن تعبَّد الطريق للنكاح، وأُتيتْ البيوت من أبوابها، وصلح الطرفان لبعضيهما، واختارا اختيارًا صحيحًا غير خاضع لمجرد عاطفة مشبوبة منسوجة من خيالات حالمة توشك علىٰ الانطفاء، فهذا مقصود شرعًا وعقلا، فما رئي للمتحابين مثل النكاح!

ولو تذكر العاشق المسكين أنه يسير الآن في نفق مظلمٍ مسدود، لأدرك أن من الخير أن يبادر بالاستدارة إلىٰ الوراء من «الآن» قبل أن يقف علىٰ آخر النفق بعد رحلة طويلة مضنية شديدةِ الإنهاك، بالغةِ التعب، ممضَّةٍ للروح، مرهقةٍ للجسد، تطوِّقها الأحلام اللاواقعية، وتحيط بها عقبات الواقع الكأداء، ويحاول الشيطان الرجيم أن يرسم لها خاتمةً خاصَّةً من حبكِ حبائله، ومن نسجِ تزيينِهِ وأمنياتِهِ!

نصيحتي للمبتلىٰ أن يعود أدراجه، ويستعيذ بربه، ويفوض الأمر إليه في سجداته، ويلح عليه بالدعاء، فهو السلاح الأمضىٰ في سلامة القلب من سائر الأدواء والأهواء.

مزاحمة الهوى:

من الأمور التي تداوي الروح الهائمة، وتلملم شَعَثَ الجراح الراعِفَة: محاولةُ إلحاق النفس ببعض البرامج الجادة كالقراءة، والبرامج الجماعية الهادفة، أو حضور الدروس وسماعها، أو قراءة تراجم الصالحين وتكرارها، وقراءة القرآن وتدبر معانيه وسماعه بصوت رخيم في هدآت الأسحار وساعات الأصيل، ففي هذا الكتاب شفاءٌ من كل داء. قال أبو عبدالله ابن القيم عن سورة الأعراف -بعد أن ذكر جملة من معانيها وأغراضها-: (والمقصود أن هذه السورة

من أولها إلىٰ آخرها في ذكر حال أهل الهوىٰ والشهوات، وما آل إليه أمرهم، فالعشق والهوىٰ أصل كل بلية)[1].

وبالمناسبة فإني أوصي كل قارئ أن يقرأ عشرين صفحة لابن القيم، وهي الفصل الأخير من كتاب روضة المحبين وهي بعنوان (في ذم الهوىٰ وما في مخالفته من نيل المنىٰ) ففي ذلك الموضع ساح قلم ابن القيم كعادته، وذكر معاني رفيعة وخلاصات نفيسة بأسلوب موجز بالغ التركيز.

فهذه النفس حين تملأها باهتمامات نافعة ومطامح عليَّة فإنها تتزاحم في القلب وتتملك مفاتيحه فيسلو عن سواها! ولهذا تجد في الكتب تعريف بعضهم للعشق بأنه (جهل عارض صادفَ حركة قلب فارغ!)، وهذان المعنيان: (الجهل والفراغ) لا أعرف معنيين مطروقين في الكتب والأشعار التي تناولت أسباب العشق وبواعثه وأدواءَه مثلَهما! فهما عمودا خيامِ العاشقين، فالقلب الفارغ من الهموم والمزاحِمات هو أرض بكر مهيَّأة للاحتلال، والجهل والغفلة والإغضاء عن العيوب هو ضمان حياة هذا العشق بين الضلوع، فإذا سقط أحد العمودين توارىٰ العشق وأوشك علىٰ الاضمحلال! لذلك يقول الرافعي: (ينظر الحب دائما بعين واحدة، فيرىٰ جانبا ويعمىٰ عن

(١) روضة المحبين (٤٨٧).

جانب، ولا ينظر بعينيه معا إلا حين يريد أن يتبين طريقه لينصرف!).
ويقول أبو الطيب:

مما أضرَّ بأهل العشق أنهمُ   هَوَوا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

وأكثر القراء يعرفون البيت التالي لهذا البيت ويحفظونه، ويجعلون هذا البيت بمثابةِ مقدمةٍ لما يليه، أما أنا فأرىٰ أن مِن أعمق ما قاله أبو الطيب هو أن هؤلاء الكائنات: (هَوَوا، وما عرفوا الدنيا، وما فطنوا!) فهم أقوام اغتروا بالظواهر، ووقفوا علىٰ الرسوم، واعتقلتهم اللحظات الفانية، ومن ثَمَّ باركوا تسليم أرواحهم في هيئة خواتم في أنامل المارَّة والعابرين! ومن جعل حبلَ سعادته معقودًا في يدِ أحدٍ من الخلق؛ خَنَقَ أفراحَه متىٰ شاء!

أَنَفَة الروح:

ثم إن العشق يتنافىٰ مع أنفةِ الروح الكريمة وسموقها وشموخها واستقلالها وحريتها وإرادتها التامة، فالعاشق أبدًا مسلوب الإرادة علىٰ الإباء، مشلول القدرة علىٰ الاختيار، مدفوع دومًا إلىٰ أضيق الطرق، وهذا يتناقض جذريًّا مع معاني كرامة الروح وإبائها، وهذا أمر يجده كل عاشق -وإن كابرَ- في أول خطوات طريقه فكيف بأواخره، فعزة النفس والتهالك علىٰ أعتاب مخلوق طريقان متوازيان لا يلتقيان! والإنسان الشريف تعزُّ عليه نفسه أن تتسول المشاعر إلحافًا، وأن ترضىٰ أن تكون مجرد احتمالٍ في حياة آخرين!

وقد جاء في معلقة امرئ القيس :

أغرَّكِ مني أن حبَّكِ قاتلــي وأنك مهما تأمر القلب يفعل!

هذا الشطر (وأنك مهما تأمر القلب يفعل) يفهمه عامة قراء المعلقة بهذه الصورة القريبة بأنك: (مهما تأمري قلبي يفعل لأنه مطيع لك)، وهذا معنىٰ صحيح محتمل، لكن لهذا البيت معنىٰ آخر مليحٌ للغاية، أورده الشراح كالأنباري والزوزني، وهذا المعنىٰ الآخر غير متداول فيما رأيت بين المعتنين، وهو معنىٰ يروقني جِدًّا لما فيه من شرف القلب وعزة النفس وإباء الروح والقدرة التامة علىٰ التكيف مع الواقع والأحوال! والمعنىٰ هو: (أنك مهما تأمري قلبَكِ يفعل! لأنك مالكة له! وأنا لا أملك قلبي..)، فهي تملك أن تحب وتملك أن تصدّ! تملك أن تقبل عليه بقلبها وتملك أن تصد عنه بروحها!

فما أجمل أن تقف حارسًا ببوابة قلبك، تُدخل في جوفه من شئت، وتخرج من حَرَمِهِ من شئت، وإذا استعصىٰ عليك طرد أحدهم من أعماق القلب انتضيت سيف العزيمة، وقطعت عنه الواردات والإمدادات والخيالات وعرضته لتيارٍ آخر يعاكس مساره، فإذا بالساكن المستعصي بعد زمن يسير مجرد خِرْقةٍ بالية، ومحضُ جُثَّةٍ تدفنها وتواريها في أدنىٰ مقبرة!

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

معراج الذكر

حجاب الإلف

(وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات؛ زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن؛ حتىٰ كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ).

ابن تيمية

بوابة القلب لا يلجها مخلوق بشَريٌّ مرّتين، أما القرآن العزيز المنزّل فيدلف بوابة القلب مرةً بعد أخرىٰ ويتوغّل في الأعماق رويدًا رويدًا حتىٰ ليتوهَّمُ حافظه وتاليه كلَّ مرةٍ أن آياتِه توغَّلتْ حتىٰ بلغت قاع فؤاده وسكنت ربوعه ولم يبق بعدُ في القرآن ما يثير كوامن الدهشة والإبهار، ويظل القارئُ علىٰ ذلك التوهم ويخلد إليه زمنا متطاولا إلىٰ أن تمرَّ به لحظة مختلسةٌ من رتابة عجلةِ الزمان، يتهاوىٰ فيها حجاب كثيف ما .. فينكشف له كم هو بعيد كل البعد عن قاع البحر الخِضَم، ومن ثمَّ تتخلق مجدّدًا في عينيه عناصر الدهشة والانبهار غضَّةً لتعيد ترتيب العلاقة وطبيعتها مع آيات هذا الكتاب العظيم!

خواتيمُ سورة فاطر من محفوظات الصِّبا البعيد، لكن من قالَ أن آيات هذا القرآن العظيم تخلق من كثرة الترداد أو تذبل نضرتها لطول النظر أو تذوي بهجتها من استعادة السماع؟ فلستُ أنسىٰ ما رفَّ جَفْني ليلةَ ٢١ من شهر رمضان سنة ١٤٣٦هـ، إذ فيها فهمت جيِّدًا مرادَ عمر الفاروق حين سمع آية: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ** ﴾ [آل عمران:١٤٤]. فقال: (ما شعرت أن هذه الآية في كتاب الله).. وأنا يا إمامي أبا حفص..

تلك الآيات من قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [سورة فاطر: ٤٠]. إلىٰ آخر السورة، وهي التي انبعثت غضَّةً طرية من حنجرة قارئ الحرم في تلك الليلة المتوَّجَة بإكليلِ بياضِ المحرمين والمضمَّخة بنداء تلبية الطائفين .. ما شعرت أنها من كتاب الله! لم أكن ضمن القانتين الصافِّين للتراويح، فقد دلفتُ إلىٰ الحرم المكِّي وإذا بالقارئ الموفَّق يتلو ويحدر بخواتيم فاطر في استرسالٍ محبَّب لنفسي، وإذا انطلق القارئ يتلو القرآن فلا مكانَ يتسع لتداولِ وجهات النظر المختلفة وتناوشِ الآراء المحتمَلَة فـ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢] تهيمن بكلِّ ثِقَلِها علىٰ المشهد، وتستحوذ عليه بكل شموخِهَا!

يا تُرىٰ ما الذي جرىٰ في تلك اللحظات المقتطعة من رتابة الدهر ولياليه المتشابهة؟ كنت أسترق النظر إلىٰ مصدر الصوت وأحني رأسي، إذ لا يملك المرء أن يحدِّقَ بكلتا عينيه في مركز الضوء، فالحنجرة الرخيمة بؤرةُ ضوء خارق يتهادىٰ في زوايا المعمورة بفاطر، وفي الأعماق تُبَدِّدُ الآياتُ المتلوَّة بإحكامها وبلاغَتها ويقينيتها الغامرة بذورَ الرَّيب وحَسَائِكَ الصُّدور فتزيحها وتتلاشىٰ كأن لم تكن أصلا! لم يكن القارئ الماهر وقتَها أعزلَ؛ كان مجندَلًا بالبهاء ومدجَّجًا بالجمال، فالحنجرة الرَّخيمة تصكُّ أسماع الطائفين والصافِّينَ بحقائقِ أعظم كتابٍ في الوجود، حتىٰ ليُخيَّل إلىٰ أحد الواقفينَ علىٰ

جلالِة ذلك الموقف بكل أجزائه: صوتا منسابًا، وكلاما إلهيًا، وأرديةً بيضاء، وشفاهًا لاهجة، ونسائم عُلويَّة، وكعبةً مشرفة تتوسط المشهد وتتربع في مركزه أن لو لم يبعث الله حُجَّةً علىٰ هؤلاء الخلقِ الذين شهدوه إلا هو لكفاهم! وتلك جنود للجمال والانفعال لا قِبَل لنا بها!

***

أسترسل في ذهني متسائلا دومًا: يا تُرىٰ ما الذي جرىٰ في تلك اللحظات المقتطعة من رتابة الدهر؟! يا تُرىٰ! أي شيءٍ هوَ ذلك الحجابُ الغليظ الذي يعصِبُ العينين فيحول بيننا وبين رؤية بهاء الآيات والاندهاش بروعتها كما هيَ .. ثم يتهاوىٰ ذلك الحجاب في لحظةٍ ما عابرة فتبهرنا أشعة الوحي الساطعة؟! وأين يكمن السرُّ الذي يجعل آيةً تحفظها منذ صباك البعيد، وتقرؤها مرارا دون أن يميدَ لبهائِها قلبك، ثم في لحظةٍ ما عابرة .. تهزُّ تلك الآيةُ نفسُها جذوعَ اندهاشك هزًّا؟! وما الذي يجعلك تمرُّ بموقفٍ ما .. تسمع فيه آيةً كريمة فتتجاوبُ معها أصداءُ روحك ثمَّ تهمُّ -رغم حفظِكَ إياها- بأن تفتحَ المصحف وتتملَّاها بعينيك تَملِّيًا كأنما أردتَّ أن تستوثقَ وتزداد يقينا علىٰ يقينِكَ بوجودِها، أو كأنما أرادَ قلبُكَ أن يَعبَّها عبًّا من أوراق المصحف! أو كأنما أردتَّ أن تُنَعِّمَ بها بقيةَ حَوَاسِّك كما تنعَّمَ بها سمعُك آنفا!

وما الذي يجعلك تشعر حينها أن ثمة انفتاقًا متَّسِعًا في جوفِكَ تنسكب فيه الحقائق القرآنية انسكابًا ..كأنها ماء بارد زُلال أهريقَ في جوف صادٍ! فما الذي جرىٰ يا تُرىٰ؟! ما الذي جرىٰ؟!هل من تفسيرٍ علميٍّ لهذه الظاهرة المتكررة؟!

***

مَرَّةً سمع الناسِكُ السَّري السّقَطي قارئا يقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥].

فقال السَّريُّ لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجابُ الغيرة، ولا أحدَ أغيرُ من الله تعالىٰ! أي أن الله جعل بين الكفار وبين القرآن حجابًا مستورًا غَيرةً من أن يناله من ليس أهلا له!

فسمّىٰ السَّريُّ هذا الحجابَ بحجابِ الغَيرة، وليس «حجابُ الغيرة» هو الحجابُ الوحيد الذي يحول دون الانتفاع بالقرآن، فثمةَ حجبٌ كثيرة متكاثِفة، فكثيرٌ من الذين يقرؤون القرآن ويحفظونه ويتلونه بينهم قد ضُرِبَ بينهم وبين الوقوف علىٰ إعجازِه وبهائِه وجلالِه بسورٍ له باب، فهم وإن قرؤوا آياتِه وتحفَّظوا سورَه إلا أنهم قلَّما استشعروا ذلك الإحساس الجارفَ الذي دَهَم عطفَي الوليد بن

المغيرة فقال عن القرآن -رغم عدائه السَّافِرِ له-: (إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، مثمرٌ أعلاه، مغدقٌ أسفله، وإنه ليعلو وما يعلىٰ، وإنه ليحطِم ما تحته).

وقلَّما أحسُّوا وهم يتلونه بتلك الحالة الشعورية التي اعترت جبيرَ بن مُطعم حينما أتىٰ النبي ﷺ وهو كافر يريد أن يفاوضه في أسارىٰ بدر، فسمع قراءة النبي ﷺ فقال: (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية «أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون، أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون» كاد قلبي أن يطير)[1]، وهم لم يفهموا جيدا سرَّ ذلك الذُّعر الذي كان يضطرم في قلوب الكفار من شدة الأثر لهذا القرآن في نفوس الذين يسمعونه، فقالوا يتواصون علىٰ التشويش: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦] .

أما أولئكَ الذين يرزحون في معتقلات هجرِ القرآن -من أمثالِنا- فلا يقرؤونه إلا غِبًّا، والذين ربما دخلوا في جملة من شكاهم الرسول ﷺ لربِّه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠]، فهؤلاء جُعِلَ بينهم وبين الحِفَاظِ علىٰ عَنَاصر الدهشة والإعجاب رَدْمًا أُفرغ عليه قِطْرا، فما اسْطاعوا أن يَظهروه

(١) رواه البخاري (١: ٢٥٦)، ومسلم (١: ٣٣٨).

وما استطاعوا له نقْبا! وإنما تمرُّ بهم لحظاتٌ نادرةٌ مختلسةٌ من النَّعيم المعجَّل يستشعرون في أثنائِها حلاوةَ القرآنِ وعظمةَ إعجازِه، ويتساءلون بعدها بحُرقة: أين نحن من هذا النعيم؟!

***

أقرب الإجابات ورودًا علىٰ الأذهان حينما يطرح مثلُ هذا التساؤل، هو القول بأن شيوع داء العُجمة حرَم كثيرا من أبناءِ هذهِ العُصورِ المتأخرة من معرفة فضلِ القرآن علىٰ سائرِ الكَلام، وهذا القول فيه نصفُ الجواب، فلا شك أن السّقف اللغوي القرآني لا يمكن أن تلامِسَ أديمَه أيادٍ قِصار، وإنما (يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها بالأساليب)، لكنَّ كثيرًا مما في القرآن هو بيِّن جلي، وكثيرٌ من الناس اليوم يستشعر بلاغةً هائلةً في القصائد الجزلة ويتذوق القِطَعِ البيانية الرفيعة ولا يحسُّ بشيءٍ قريبٍ من ذلك حينما يسمع آيات القرآن، وما الذي يجعل بعض الأعاجِم الذي لا يتكئون إلا علىٰ لغةً عربية عرجاء ومع ذلك يستشعرون هيبةً تتطامن في ضلوعهم حينما يتلىٰ القرآن فيأخذ بتلابيبهم أخذا؟ بل إن بعضهم لا يفقه من العربية شيئا ومع ذلك ما إن سمع صوتَ القارئ ينداح في الآذان بكلام الله إلا وغشيَته سكينةٌ غامِضَة قادَته للسؤال عن ماهيَّة هذا المتلوّ ثم تبعها إعلانُ الشَّهادتين في إذعان مذهل!

هناك شيءٌ ما.. أقرب من موضوع الحجابِ اللغوي، وأبعد تناولًا في الكتابات التدبرية، وأكثر تعقيدا في التفكيك والإبانة عنه.. إنه حجاب الإلف! أوَ تدري ما حجاب الإلف؟! أرأيتَ إن جعل الله عليك الشمسَ سرمدًا ثابتةً في جَوِّ السَّماء هل كنت ستفهم ما عظَمَة الإشراق؟ وهل كنت ستدرك دون مغيبِها كلَّ يومٍ في عينٍ حَمِئَةٍ معانيَ الغروب؟! فليسَ كلُّ وصلٍ متاحٍ من المحبوب محمودَ العاقبة علىٰ قوة آصرة العلاقة، هناك اقترابٌ «ما» يفسد طبيعة العلائق، وربَّ قربٍ ولَّد جفاءً، فهذا المصحفُ الذي أدخلتَ تطبيقَه في جهازِك، ووضعته فوقَ رفوفِ مكتبك، وأدرتَ زرَّ المذياعِ فإذا بالقارئ يرتِّلُهُ ترتيلا، ووقفتَ في الطريق عند إشارةٍ ضوئية فسمعتَه من حنجرة قارئٍ من مسجدٍ مجاور، هذا القرآن العظيم الذي يجلل حياتَك -دونَ كبير جهد منك-: ربما اقتربت منه -بلا شعورٍ- لتبتعد!

إنك بحاجة ماسَّة إلىٰ تجديدِ طبيعة علاقتك معه، بحاجةٍ أن تتعرَّف عليه مرةً أخرىٰ، علاقةً ليس فيها إضافةُ معلومات جديدة، وإنما هو نفضُ الغبار عن المعارف الكامنة وبعثها من مرقدِ الإلف والاعتياد، وذلك بأن تستحضر جملةَ حقائقَ هائلةٍ تَتَعَلَّق بعظيم نعمتِهِ، وربانية مصدره، وصرامة يقينيَّته، وبالغ أثرِه، وقِصَّةِ نزولِه، ورضوخ أئمة البيان لسطوتِه، وتُرَبِّيها في قلبك حتىٰ تنموَ وتزدهرَ

لتستطيع بعدها أن تستشعر جلالَ القُرآن وبهاءَه، تذكر جيِّدا أن جميع لحظاتِ استشعار عظمةِ القرآن الخالدة التي مرَّت بكَ في عمركَ هي تلك اللحظات النادرة التي ارتفع فيها عنك حجاب الإلفِ والاعتياد، فصافحت فيها الحقائق القرآنية وجهًا لوجه، وذلك حينما خرجت من هذا القصر المشيدِ الذي وُلدت داخلَه، لتنظر إلىٰ عظمة بنائه وبهاء أضوائه من الخارج، ثم لتدخلَ من أبوابه الضخمة مجدَّدًا!

لعلك تذكر أنك ظللت طيلةَ عمرك تكرر: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص:١-٤]، ولم تخالج شغافَك سوىٰ أن معانيها الظاهرة مرَّت بفؤادِكَ مرورَ الكرام، ثم في ساعةٍ ما سمعتَها وأنت في الحرم بين زِحَام الموحِّدين، أو قرأتَها إثر مشاعر خوفٍ غزتك من مخلوقٍ فهزتك معاني الصمديَّة والأحدية هزا حتىٰ كأن الدنيا كلَّها كانت في طرفِ كمِّك فنفضتَه وقلت به هكذا فتهاوَتْ..! وأنت باستعادتك هذا الشُّعور المستَلَب مِن حجاب الإلفِ كأنما استعدتَّ أرضا محتلةً تحتَ أقدامِ عدوّ غاصبٍ، وكأنما حطَّمتَ بيديك قيودا ثِقالا تغلُّ عنقَكَ عَنِ الجوَلانِ في ملكوتِ الله!

❋❋❋

استشعار الخطاب:

ومما يعين علىٰ تمزيق حجاب الإلف وهتك أستاره المنسدلة أمام عينيك هو أخذه للتلقي واستشعارك أنك من جملة المخاطَبِين بهذا القرآن فإذا قرأت أحكامًا فلستَ مجرَّد ناقل رسالة لآخرين، وإنما تقرأ لتعمل بما أمرت منه، وإذا قرأت أخبار الأمم فلست جامعًا لحكايات ومسامرات وإنما لتثبيت قلبك علىٰ الهدىٰ، كما قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:١٢٠].

واستشعار العبد كونه مخاطبًا في أثناء تلاوة القرآن مما توارد علىٰ التوصية به عدد من أهلِ العلم، فقد قال محمد بن كعب القرظي -رحمه الله-: (من بَلَغَه القرآن فكأنما كلمه الله عز وجل)، قال أبو حامد تعليقًا عليها: (إذا قدَّر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عملَه، بل يقرؤه كما يقرأ العبدُ كتابَ مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه)[١].

وقال ابن القيم -رحمه الله-: (إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضر حضورَ من يخاطبه

---

(١) إحياء علوم الدين (١: ٢٨٥).

به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك علىٰ لسان رسولهﷺ)[1]، وهؤلاء الذين يتلونه حق تلاوته ويتلقَّونه للعمل به هم أهل القرآن علىٰ الحقيقة، ولو لم تكن أصواتهم نديَّة، وكثير من الناس إذا سمع الكلام عن أهل القرآن انصرف ذهنه إلىٰ من آتاهم الله صوتًا حَسَنًا، سواءً عرفوا بالعمل به، أو عرفوا بما يضادّ ذلك.

إدامة النظر:

ومما يعين علىٰ تمزيق حجاب الإلف وهَتْكِ أستاره المنسدلة مع استحضار المعاني السَّالِفة المواظبةُ علىٰ الحزب اليومي فإن براعم الانتفاع يبدِّدُها الصدود ويجتثها من جذورها فأس الابتعاد، ومن حافظ علىٰ حزبه اليومي فإن استطاع أن يجعله في الليل بعد أن يأخذ قِسطًا من النوم فهو أفضل، فقراءة القرآن في تلك الحال أحضر للقلب وأدعىٰ لبَعث استشعاره وأحاسيسِه بما يتلو، كما قال تعالىٰ: «إن ناشئة الليل هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا» قال ابن كثير: لأنه أشدُّ مواطأةً بين القلبِ واللسان.

يروىٰ أنَّ رجلًا قرأ القرآن علىٰ بعض العلماء، قال: فلما ختمته أردت الرجوع من أَوَّلِه. فقال لي: اتخذت القراءة علي عملا؟! اذهب فاقرأه علىٰ الله تعالىٰ في لَيلِك وانظر ماذا يفهمك منه فاعمل به[2].

---

(١) الفوائد (٣).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (١: ٣٨).

تنويع المداخل:

ومما يعين علىٰ تمزيق حجاب الإلف وهتك أستاره المنسدلة مع استحضار المعاني السَّالفة التنويعُ في الإدخال علىٰ القلب، فمرةً يتلو القارئ، ومرةً يطلب من يقرأ عليه، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن مسعود: «اقرأ علي القرآن» . فقال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال : «إني أحب أن أسمعه من غيري»، فالنبي ﷺ لم يطلب من ابن مسعود القراءة ليعلِّمَه، وإنما لأنه أحبَّ سماعه فقط، ولذلك بوَّب البخاري: (باب من أحب أن يسمع القرآن من غيره) وذكر فيه حديث ابن مسعود، وقال ابن تيمية: (قراءة ابن مسعود عليه في هذا الموضع لإسماعه إياه، لا لأجل التصحيح والتلقين)[1]، فمن الملحوظ أن ثمة منطقةً نائيةً جدًّا داخلَ تلافيفِ النفس لا تكاد تلامس تخومَها إلا الكلمات القرآنية العليَّة حينما تتغنىٰ بها حنجرةٌ ندية.

وذلك التأثر بالاستماع لسببٍ ذكره الشراح عند هذا الحديث، فقال القسطلاني: (لأن المستمع أقوىٰ علىٰ التدبر، ونفسه أخلىٰ وأنشط لذلك من القارئ، لاشتغاله بالقراءة وأحكامها)[2]، وذكر الشيخ محمد العثيمين هذا المعنىٰ ثم قال: (قيل: القارئ حالب،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٦: ٤٨٢).
(٢) إرشاد الساري (٧: ٨٣).

والمستمع شارب. يعني القارئ يحلب الناقة أو الشاة والمستمع شارب، فهو الذي يستفيد)[1].

كثرة التكرار:

ومما يعين علىٰ تمزيق حجاب الإلف وهتك أستاره المنسدلة الوقوفُ علىٰ بعض الآيات وكثرة إعادتها وتكرارها، والأصل في ذلك ما جاء عن النبي ﷺ في السنن عن أبي ذر قال: قام النبي ﷺ بآية يرددها حتىٰ أصبح، والآية قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]. وعقد النووي في كتابه التبيان في آداب حملة القرآن فصلا بعنوان (في استحباب ترديد الآية للتدبر)[2] وذكر فيه جملةً من أخبار الصحابة والتابعين في وقوفهم عند بعض الآي وتكرارهم لها مدةً طويلة، يمتحون من نبعِها، ويفتشون أسرارَها ساعاتٍ طوالا.

***

وفي هذه الوسائل التي ذكرتُها كسرٌ لجمود الفهم وبلادة الإحساس، وتحريرٌ للحواس الغافية الرازحة في قيودِ حجاب الإلف لتمتلئ بعدُ بالقرآن امتلاءً، فإن النَّبع منك -أخي الحبيب- علىٰ ضربة مِعولٍ فاضربه لتتفجر النفس اندهاشا بهذا الكتاب العزيز!

(١) تفريغ الشرح الصوتي لرياض الصالحين.

(٢) التبيان (٨٥).

ولادة الدهشة والدهشة الخالدة

(تقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف والملاسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلىٰ نفسك، دون كدٍّ خاطر ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلامًا ولغات، بل ترىٰ صورًا وحقائق ماثلة، وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خُبرا، ووقفت علىٰ معناه محدودًا، هذا ولو رجعت إليه كرة أخرىٰ لرأيتك منه بإزاء معنىٰ جديد غير الذي سبق إلىٰ فهمك أول مرة).

محمد عبد الله دراز

لا أعرف كم قرأت لعلماء أو مفكرين تحدثوا عن تغير وجهة نظرهم واختلاف تقييمهم تجاه كتب معينة، سواء كانت كتبا شرعية أو فكرية أو في أي باب من أبواب المعرفة، فقد كانوا يرونها سخيفةً باهتةً وذلك حين قرؤوها في مقتبل الشباب العلمي وزمن اليفاعة المعرفية.. ثم ذكروا بأنفسهم أنهم أدركوا نفاستها الحقيقية حين عادوا إليها زمن إقبال كهولة الفكر وحلول خريف العمر، ثم أَبدوا للقراء استغرابهم حيال قصور نظرتهم الأولىٰ وسذاجتها، وهذه مفارقة لطيفة للغاية، فالمعتاد أن العقل ينمو مع دوران عجلة الزمن وتراكم بنيان المعرفة فترتفع فيه شروط التقييم وتتنامىٰ، ومن ثَمَّ تضمر داخله ملكة الاندهاش حتىٰ إنها في الشيخوخة تكاد تتلاشىٰ! فلماذا يحصل لهؤلاء الانعكاس في التقييم فتهبط عليهم سحائب الدهشة بعد أن كانت سماؤهم صحوا خاليةً منها؟!

شواهد مقرِّبة:

وأنا أضرب للقارئ أمثلةً عابرةً وقفت عليها:

حدثني أحد المبرزين في علوم الحديث أنه قرأ الكتاب العبقري (التنكيل) للعلامة المعلِّمي في أوائل طلبه لعلم الحديث، فجمع من تلك القراءة القديمة فوائد يسيرة جدا من الممكن جمعها في قُصاصة

صغيرة! ثم إنه عاد إلىٰ كتاب التنكيل بعد مرور قريبٍ من عقدَين من السنين وذلك بعد أن أصبح من المتضلعين في علوم السنة الذين يشار إليهم في الساحة الحديثية بالبنان، فكانت المفاجأة أنه جمع منه فوائد غزيرة ودوَّن ملاحظات دقيقة كان قد مرَّ عليها خلال قراءته الأولىٰ القديمة مرورَ الظامئ الذي يرىٰ جِرار الماء الممتلئة فلا يدري أن فيها ما يبلُّ جوفَه!

وسمعتُ مرةً من أحد أفراد النحاة في هذا العصر قصةً له مع كتاب (المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية) لأبي إسحاق الشاطبي، وقصة هذا النحوي قريبة من قصة ذلك المحدث مع كتاب التنكيل: **استهانة في القراءة الأولىٰ ثم ولادة لبراعم الاندهاش في القراءة الثانية!**

ومما قرأته من النماذج المشابهة ما ذكره الكاتب المصري جلال أمين عن قصته مع الكتاب الشهير في مصر خلال القرن الماضي (حديث عيسىٰ بن هشام) لمحمد المويلحي.. وكيف أنه استسذجه في صباه ثم دهش به في كهولته![1]

حدُّ الكبار:

وهذا هو حدُّ الكبار في أي مجال، هو أنهم مهما غابوا عن قلبك وتواروا عن ناظرَيك وداهمك شعور ساذَج أنك تركتهم وراءك ثم

(١) شخصيات لها تاريخ (١٧٣).

عدتَّ إليهم إذا بهم ما زالوا يحتلون في قلبك مرتبةً سامقةً، كأنما كانوا يركضون معك وأمامك في كل مراحِلِك، فكالقمر يلوح للمسافرين خلف السحب المتراكمة وكلما توهَّموا أنهم سبقوه ظهر لهم مجدَّدًا من بين الغيوم التالية!

ولا أريد الاستغراق خلال هذا الفصل من الكتاب بذكر النماذج التي تحمل مضمونًا واحدًا.. (الاستخفاف في الصبا.. ثم ولادة براعم الدهشة في الشيخوخة).

وإنما أود أن أدلف إلىٰ تحليل منطقي لهذا الانقلاب القسري في التقييم.

تفسيرات محتملة:

ربما يقال -بادي الرأي- في سبيل تفسير هذا الانقلاب في التقييم: إن شروط التقييم تنخفض إلىٰ مستواها الأدنىٰ في آخر العمر! وبالتالي يمسي ما لا يدهش في ميعة الصبا مدهشا خلابًا زمن الشيخوخة!

وفي الحقيقة أن هذا التحليل الذي يلوح -لأول وهلة- لا تسعفه الخبرة بحقائق الحياة ومسلّمات الطبيعة البشرية، فالأطفال هم أكثر ذوي المراحل العمرية اندهاشًا علىٰ الإطلاق، ومن تأمل من المربين سؤالات الأطفال أدرك أن أنهار الدهشة البشرية تتدفق أولا من نفوس

الأطفال ثم تفيض فضلَتُها على سائر الناس، حتى طاب لبعض الذين فَسَّروا جوهر الفلسفة بأنه الاحتفاظ بالدهشة تجاه الأشياء. أن قالوا: إن الفلاسفة ليسوا إلا أطفالا كبارا! ثم تضمر بعد ذلك ملكة الاندهاش في نفوس أكثر الخلق تدريجيًّا حتى تصل إلى مستوياتها الدنيا مع اضمحلال القوى الإنسانية في خريف العمر .. ولكنها تبقى نابضةً بقدر منخفض جدًّا، وقد روى الزجَّاجي في أماليه أنه قيل لشيخٍ من بني بكر بن وائل قد كبُر حتى ذهبت منه لذة المأكل والمشرب والنكاح: أتحب أن تموت؟ قال: لا! قيل له: فما بقي من لذَّاتِك في الدنيا؟ قال: أسمع بالعجائب! ثم أنشأ يقول:

وهُلك الفتى أن لا يراح إلى الندى   وأن لا يرى شيئا عجيبا فيعجبا!

فالهلاك مُنْدَسٌّ في كُلِّ مِعطفٍ مُغْبرٍّ خالٍ من براعم الدهشة!

إذًا ما هو التحليل المنطقي لولادة براعم الدهشة في زمن عمري متأخر بعد غيابها؟!

معارف كاشِفة:

إن الحقيقة المنزوية وراء هذا الانقلاب القسري في التقييم هي أن ثمة كتبًا ومعارف وشخصيات لا يمكن أن تُعرف قيمتها الحقيقية بِدِقَّة تامة إلا بعد التضلع بعدد كبير من المعارف تؤهل للحكم عليها! هناك معارف لا تُدرك إلا بمعارف! لا تستطيع أن ترى القمر ولو كان

نوره يملأ الفضاء إذا كنت غافيًا مسدلا جَفْنيك! وكذلك العقل يُحرَم من فهم بعْضِ المعارف فضلا عن اندهاشه بها بسبب حجاب غليظ اسمه: قِلَّة المعرفة!

هناك أعلام ومعارف بشرية يسهل إدراكها وتجاوزها وتبديد جوانب الدهشة فيها في أوائل الطلب، ومعظم المعارف والكتب داخلة في هذا القسم، بالمقابل هناك معارف وأعلام يعسر الوقوف علىٰ جوانب الدهشة فيها -فضلا عن تجاوزها- إلا بعد صعود طويل في مدارج الطلب! فكلما ازداد المرء ترقِّيًا في المعرفة ضمرت تلك الأشياء التي تظفر بدهشته!

الكتاب الاستثنائي:

هذا الوضع غيرُ المستقرِّ للدهشة في قلبك سيمرُّ بك مع أغلب المعارف والأعلام التي تطويها خلال حياتك المعرفية.. لكنه لن يمرَّ معك مطلقًا خلال رحلتك مع القرآن إلا بصورة الدهشة المتنامية! فَمِن عظمة هذا الكتاب الخالِد الذي أنزله الله وتكلم به أن أكثر الناس تثمينا لقدره وخضوعا لجلالة إعجازه وتسليما بغزارة معارفه واندهاشا بروعة نظمه؛ هم المتضلعون بالمعارف والمتذوقون لحقائق البيان والمتبتِّلون في محراب المعرفة! فإنهم يرتقون في معارفهم فتنخفض رؤوسهم بالدهشة حيالَه! حتىٰ لقد وصف الله تعالىٰ بعضهم بقوله:

﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

ما معنىٰ الخرور للأذقان؟ هو السقوط علىٰ الوجه.. يفعلونه ساجدين! تأمل بهاء صورة الخرور للأذقان لتدرك عظمة اندهاش الذين أوتوا العلم بالقرآن! رغم كونهم أوتوا العلم لم تُبَدِّدْ معارفهم روعة الدهشة بالقرآن، وعمومًا ستلحظ إن أحسنت التأمل ارتباطًا وثيقًا وخيطًا رفيعًا في الآيات ما بين الذين أوتوا العلم والقرآن، حتىٰ قال الزمخشري: كأنه قيل للنبي ﷺ: تَسَلَّ عَن إيمانِ الجهلةِ بإيمانِ العلماء!

سرُّ الدهشة:

والسرُّ وراء تنامي ذلك الاندهاش هو أن تطور المعرفة البشرية يكشف قصورها حيال الآيات الشرعية والكونية، ولذلك يقول الشيخ محمد دراز: (كلما ازداد المرء بصيرة ازدادَ بقدر ذلك هضمًا لنفسه وإنكارًا لقوته وخضوعًا بكليَّته أمام أسلوب القرآن، فتلك سنة الله في آياته، لا يزيدك العلم بها والوقوف علىٰ أسرارها إلا إذعانًا لعظمتها وثقةً بالعجز عنها، وليست كذلك صناعات الخلق فإن فضل العلم بها؛ يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلىٰ الزيادة عليها، ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسىٰ وهارون)[1].

(١) النبأ العظيم (٨١).

ولا يعني هذا أن القاصرين معرفيًّا أو لغويًّا لا يدركون شيئا من إعجازه ولا يفغرون فمَ الدهشة حيالَ بلاغته الأخَّاذة بمجامع القلوب .. بل دهشة القرآن تغمر فيوضها كل قلبٍ بشري أقبل عليه، بل إن دهشته لتمدُّ رواقَها لتشمل أحيانا طائفة من المعرضين بقلوبهم عنه، كما حصل مع جبير بن مطعم قبل إسلامه حين سمع النبي ﷺ يقرأ سورة الطور، قال: (كاد قلبي أن يطير!).

لكن المقصود أنه هو الكتاب الذي ستظل مهما كبرت وتضلعت بالمعرفة وفقدت في سبيل ذلك ملكة الدهشة تجاه أشياء كثيرة، فستبقىٰ كائنًا مندهشًا وصغيرًا جدا إزاءَ أنواع إعجازه الكثيرة، وغاية ما ستفعله كلما ازددْتَّ علمًا أن تعرضَ معارفك الجديدة علىٰ القرآن.

وتأمل اندهاش بحر العلوم النقلية والعقلية أبي العباس ابن تيمية حين وجد نفسه في آخر أيامه وحيدًا في سجن القلعة فأقبل علىٰ القرآن إقبالا تامًّا، وهو لم ينقطع خلال عمره السالفِ عنه، لكن تهيأ له في تلك المدة فتوحات خاصة، فقال حاكيًا أحواله الإيمانية الجديدة: (قد فتح الله علي في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء، كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت علىٰ تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن)[1].

***

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٤: ٥١٩).

هناك حقيقة راسخة تنطق بها الدهور المتطاولة، وهي أنك مهما كثرت قراءاتك، واتسعت معارفك، فلن تستطيع أن تنزع مِن عينيك غلالة الدهشة وفرط النشوة ولذَّةَ التضلع بفهم آي الكتاب .. وذلك لأنَّ العمر كلَّه لو أنفقته في سبيل الوقوف علىٰ بعض بواعث الدهشة في القرآن فلن تتمَّها، فضلا عن أن تتجاوزها، وستظل عند أي جانب إعجازي تطالعه تمتح من نبع اندهاش لا ينضب .. إنها الدهشة بالقرآن.. الدهشة الخالدة!

الذكر منشور الولاية

(الذكر قُوْتُ القلب والروح، فإذا فَقَدَه العبدُ صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قُوتِه، وحضرتُ شيخ الإسلام ابن تيمية مرةً صلىٰ الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالىٰ إلىٰ قريب من انتصافِ النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي ولو لم أتغدَّ سقطت قُوَّتي).

ابن القيم

من العبارات الدارجة في كتب السلوك قولهم: **الذكر منشور الولاية**. وتفسيرها أن الذكر مرسومٌ ملكي من ملك الملوك سبحانه للعبد بالولاية، كما تخرج المراسيم الدنيوية بالوظائف والتعيينات، ولله المثل الأعلىٰ.

ولا شكَّ أن الذِّكر من أعظمِ العبادات وأيسرِها مؤونة، والإنسان يعرف قربَه من ربِّه وبعدَه عنه بمدىٰ ذِكْره له، فإذا انقطع عن ذِكر الله تعالىٰ زمنًا تكالَب عليه عدوُّه اللَّدود، ودخل في عَناءِ الاستحواذِ الجُزئي قال تعالىٰ: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١٩]. ولازَمَه عدوُّه ملازَمَةَ القرينِ حتىٰ يستوحشَ مِن الذِّكر، وينفر من الخلوة برَبِّه، ويجد الوِردَ ثقيلًا علىٰ لِسانِه، كأنما هو يَرْسُف في أغلالِ الصَّمْت قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف:٣٦]. ثم يغلبه هواه في تلك الحال وتكون أحواله انفراطًا وضياعًا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف:٢٨].

ثم إذا وفقه الله تعالىٰ، وغالَبَ نَفْسَه، وذَكَرَ الله تعالىٰ، وأقبل عليه بقلبه، واجتهد في إزالة تلك الوحشة الكئيبة بينه وبين خالِقِه؛ وَجَدَ بالذِّكر أُنسًا عظيمًا وسكينةً قلبيَّة تُقَصِّر عن تصويرها العبارات.

فالمحافظة علىٰ الأوراد والأذكار من أعظم دلائل حياةِ القلب، وطول الغفلة عن ذكر الله تعالىٰ ينذر بوجود خلَلٍ إيمانيٍّ عميقٍ؛ وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: (الذكر للقلب مثلُ الماءِ للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!)[1].

علاقة الذكر بالإنجاز:

للذكر ثمرات عظيمة تُطْلَبُ في مظانِّها، وأقتصر هنا علىٰ ذكر ثمرةٍ من ثمراتِه، فأذكر أني رأيتُ أحد الفضلاء من أهلِ العلمِ كثيرَ البركة في وقته، ينجز في اليومِ ما يضطلعُ به سواه في أيامٍ أو حتىٰ أسابيع! فسألته عن سرِّ ذلك النشاط، فذكر لي أنه يردِّدُ كثيرًا في ساعات الصباح الأولىٰ: (لا حول ولا قوة إلا بالله) مستشعرًا افتقارَه وضعفَه وحاجَتَه، وَوَجَدَ لهذا الذكرِ مفعولًا عجيبًا!

ولابن تيمية كلامٌ شريف حول بركة: (لا حول ولا قوة إلا بالله) علىٰ العبد، قال فيه:

(وليكثر العبد من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فإنه بها يحمل الأثقال، ويُكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال)[2]، وذَكَرَ ابن القيِّم أن من ثمرات الذكر أنه يعطي الذاكر قوةً حتىٰ إنه ليفعل مَعَ الذِّكرِ

---

(١) الوابل الصيب (٤٢).

(٢) جامع المسائل (٤٤٧).

ما لم يُظَنَّ فعلُه بدونِه، وذكر عجائبَ وغرائبَ من إنجازات شيخِه ابن تيمية في يومِه ولَيلَتِه، وأحالها لكثرةِ ذكره لربِّه تعالىٰ[1].

وهناك من ذكر أنه وجد انتشار البركة في وقته بتلاوة القرآن وطولِ ملازمته، وكلما زادَ من التلاوة؛ وجد البركة تتضاعف في يومه وليلته! وقد ذكر الحافظ ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة أن عماد الدين المقدسي أوصىٰ الضِّياء المقدسي بقوله:

(أكثر من قراءة القرآن ولا تتركه، فإنه يتيسر لك الذي تطلبه علىٰ قدر ما تقرأ، قال الضياء: فرأيتُ ذلك وجربتُه كثيرًا!)[2].

وأودُّ أن أنبِّه علىٰ أمرٍ مهمٍّ: إذا عزمت امتثالَ هذه الوصايا الشريفة، فافعلها مستشعرًا عظمةَ القرآن، وعظمةَ المتكلم به تعالىٰ، وشدةَ حاجتك وافتقارِك وعَوَزَك لوصاياه وهداياتِه ونحو ذلك من المعاني الإيمانية الجَلِيلة، فالعمل الصالح الواحد يفعله كثيرٌ من الناس، وهم يتفاوتون فيه وفي تحصيلِ ثمراته تفاوتًا عظيمًا، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرَّدِ صورِها الظاهرة، بل لحقائقها التي في القلوب، والناس يتفاضلون ذلك تفاضلًا عظيمًا)[3].

---

(١) الوابل الصيب (٧٧).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٣: ٢٠٥).
(٣) منهاج السنة (٦: ٢٢٦).

وذكر ابن تيمية أن أبا حامد الغزالي بَلَغَه أن من أخلص لله أربعين يومًا تفجَّرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لِسانه. قال أبو حامد: (فأخلصت أربعين يومًا فلم يتفجر شيءٌ فذكرت ذلك لبعض العارفين، فقال لي: إنك إنما أخلصت للحكمة، لم تخلص لله)[1].

وهكذا إن عزمت علىٰ الذكر بـ «لا حول ولا قوة إلا بالله» وسِواها، افعلها مستحضرًا معناها طالبًا من الله الحولَ والطولَ والقوةَ وانشراحَ الصدر وجمعيَّةَ القلب وحفظَ الجوارح مستعيذًا به سبحانه من أن يكِلَكَ إلىٰ نفسك وطاقتِك وجهدِك طرفةَ عين، فإن هذا المسلك يختلف عمَّن يفعل هذه الوصايا وأمثالها دون استشعار لمعناها ومقصودِها، وإنما هو باحث فقط عن الثمرةِ مستعجلٌ قطافَها، فحسِّن النية واقصد البحرَ تَأتِك الثَّمَرات!

---

(١) درء تعارض العقل (٦: ٦٦).

قائمة المصادر

- آثار الشيخ عبد الرحمن المعَلمِي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ، (١٤٣٤هـ).
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت.
- الأخلاق والسير في مداواة النفوس، أبو محمد ابن حزم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٩هـ).
- الأدب المفرد، البخاري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٩هـ).
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني، الناشر: المطبعة الكبرىٰ الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة، (١٣٢٣هـ).
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض.
- التبيان في آداب حملة القرآن، النووي، حققه وعلق عليه: محمد الحجار، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ).
- جامع الرسائل، ابن تيمية الحراني، المحقق د. محمد رشاد سالم، دار العطاء، الرياض، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٢هـ).
- جامع العلوم والحكم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، المحقق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: السابعة، (٢٠٠١م).

- الجامع الكبير، أبو عيسىٰ الترمذي، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، (١٩٩٨م).
- جامع المسائل، ابن تيمية، المحقق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة، الطبعة الأولىٰ، (١٤٣٢هـ).
- الجمر والرماد، هشام شرابي، دار الطليعة، الطبعة الأولىٰ (١٩٧٨م).
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب، الطبعة الأولىٰ (١٤١٨هـ) .
- درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية (١٤١١هـ).
- ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب الحنبلي، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٥هـ).
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٣هـ).
- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة والعشرون (١٤١٥هـ).

- شخصيات لها تاريخ، جلال أمين، دار الشروق، الطبعة الأولىٰ (٢٠٠٧م).
- الصفدية، ابن تيمية الحراني، المحقق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ).
- علماء نجد خلال ثمانية قرون، البسام، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية (١٤١٩هـ).
- الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ).
- مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية الحراني، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، عام النشر: (١٤١٦هـ).
- مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، ابن رجب الحنبلي، المحقق: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولىٰ (١٤١٣هـ).
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤١٦هـ).

- المسند الصحيح المختصر، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- مشرَّدون، أندرو شافر، ترجمة منير عليمي، دار صفحة.
- مفاتيح الغيب، الرازي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، بيروت (١٤٢١هـ).
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، ابن تيمية، المحقق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولىٰ (١٤٠٦هـ).
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية (١٣٩٢هـ).
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار الثقافة، الدوحة (١٩٨٥م).
- الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثالثة، (١٩٩٩م).
- وحي القلم، مصطفىٰ الرافعي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ (١٤٢١هـ).